

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجيلالي بونعامة - خميس مليانة



كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

أدب الخطاب النبوي

- نماذج مختارة -

مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص : لسانيات عامة

إشراف الأستاذ:

- د. حسين قاضي

إعداد الطالبتين:

- فريدة خليلي

- عائشة دوشي

السنة الجامعية:

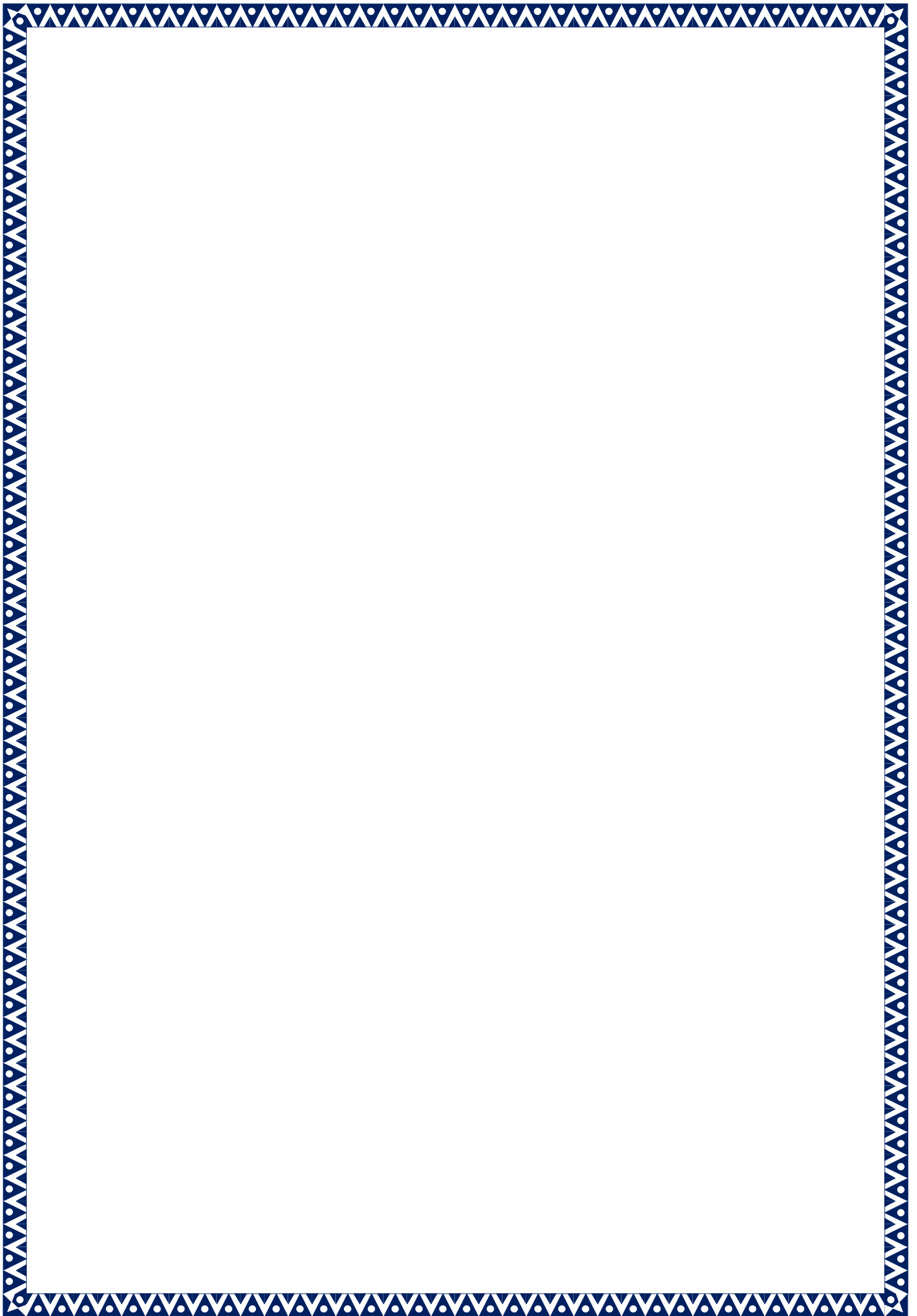
2018 - 2017

شكر وتقدير

نحمد الله تعالى ونشكره على توفيقه لنا في إتمام هذا العمل المتواضع، كما نتقدم بأسمى عبارات الشكر إلى الأستاذ المشرف الدكتور **حسين قاضي** عرفانا له على وقفته الدائمة معنا، وعلى تحمله عناء الإشراف على هذه المذكرة، وتقديمه نصائح وتوجيهات قيمة أفادتنا في إنجاز هذا البحث فجزاه الله خير الجزاء.

والشكر موصول إلى كل من ساعدنا من قريب أو بعيد، حتى ولو بكلمة تشجيعية زادتنا القدرة على المواصلة، والاجتهاد ونخص بالذكر الأستاذ الفاضل الدكتور: مصطفى طويل، دون أن ننسى أساتذة لجنة المناقشة فجزاهم الله جميعا كل خير. كما لا يفوتنا أن نتقدم بجزيل الشكر لقسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة الجبيلي بونعامة - خميس مليانة - على ما قدّمه لنا.

والحمد لله أولاً وأخيراً.



إهداء

إلى كل محبّ لكتاب الله ولسنة نبيه.

إلى من حصد الأشواك عن دربي ليمهد لي طريق العلم،

والذي العزيز حفظه الله، برّاً و عرفانا له.

إلى معلّمتي الأولى، منبع الحب والحنان والدتي الحبيبة حفظها الله،

برّاً و عرفانا لها.

إلى الأحبة من أهلي وصحبي حبا وحنانا، وأخص بالذكر إخوتي أعزهم الله

جميعا: حمزة، سعيد، فتيحة، وليد.

إلى أهل العلم كافة أهدي هذا الجهد المتواضع.

فريدة

إهداء

إلى قدوتي في الحياة صاحب القلب الكبير أبي رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

إلى صاحبة القلب النقي الطاهر التي لم تبخل عليا بعطفها، وحنانها ودعواتها

أمي، أسأل الله أن يبارك لها في عمرها، و يمتعها بالصحة والعافية.

إلى القلوب الطاهرة والنفوس البريئة: إخوتي وأخواتي حفظهم الله.

إلى ابن أخي الغالي محمد عبد الوهاب وكل أبناء إخوتي كل باسمه، إلى كل

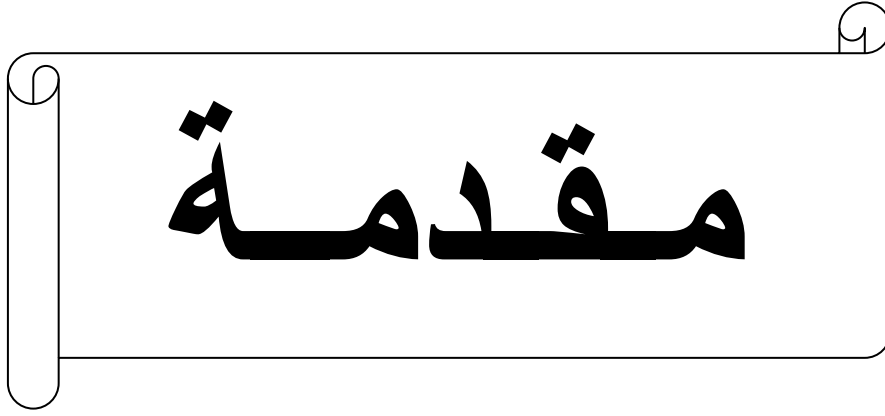
الصدقات والأصدقاء.

وإلى كل أساتذة قسم اللغة العربية، إلى كل طالب علم، وكل من يعرفني من قريب

أو بعيد.

أهدي هذا العمل المتواضع.

عائشة



الحمد لله على ما أنعم، والشكر على ما أولى، والصلاة والسلام على أنبيائه، ورسله دعاء الهدى ومصابيح الرشاد وبعد:

إن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للنبي صلى الله عليه وسلم، لذلك فالخطاب النبوي الشريف رسالة تبليغية عليا بعد القرآن الكريم موجهة للبشرية جمعاء، فهي رسالة خالدة صالحة للتطبيق في كل مكان وزمان، ولا تختص بأمة معينة، وإنما هو خطاب مهياً للتوصيل لمجاله العالمي الممتد عبر الزمان والمكان، ف جاء لبيّن للإنسان علاقته مع خالقه، ومع نفسه وغيره من البشر، وذلك بتشريع الأحكام وتوضيح المقاصد، وبيان طرق المعاملات، وغير ذلك، لهذا فالخطاب النبوي أو الحديث النبوي يعد المصدر الثاني من مصادر التشريع بعد القرآن الكريم، حيث كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجبريل عليه السلام يمهده بالسنة التي تفسر ذلك، فكل ما يصدر عنه صلى الله عليه وسلم من أقوال، وأفعال وغيرها مصدره الوحي، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم/3-4]

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم صاحب فصاحة، وبلاغة، بل هو أفصح العرب بلا منازع كيف لا؟ وهو من قريش وتربى في بني سعد، ولعلّ مما أوتيته صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم وفصل الخطاب.

يعتبر الخطاب حاجة ضرورية للمرء للتعبير عن حاجياته اليومية، لذا كان لزاماً على العاقل أن يتعلم أدب التخاطب، وفنونه ما يصل به إلى قلوب الناس، وأهم مصادر تعلم أدب الخطاب وأعلاها كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فهما ينبوع الأدب، ومعين الحكمة، فبقدر ما نتدارسهما بقدر ما نستفيد من كنوز أدابهما، مما يحقق المحبة، والإخاء في المجتمع الإسلامي، ومن هنا جاء اختيارنا لموضوع هذه الدراسة والمعنون ب: أدب الخطاب النبوي.

ويختص هذا البحث بدراسة الخطاب النبوي، وما يتضمنه من آداب، وقيم أخلاقية، وما امتاز به من خصائص جعلته يتربع على قمة الخطابات البشرية، وذلك من خلال الأحاديث

والخطابات الموجهة من النبي صلى الله عليه وسلم، إلى الناس باختلاف شعوبهم وقبائلهم، فخطاباته صلى الله عليه وسلم قمة في الأدب الخالص. وتشمل هذه الدراسة الوقوف على ما في كلامه صلى الله عليه وسلم من الجمال، والبلاغة، والفصاحة.

وقد تعددت البحوث والدراسات التي تناولت الحديث النبوي بالدرس والتطبيق، قديماً وحديثاً، أما الكتب القديمة فتتمثل في كتب شرح الحديث، وتأويله وغريبه ... الخ، ولعل من أبرز تلك الدراسات كتاب: الإمام بن سلام الهروي بعنوان: غريب الحديث، وكذلك كتاب الأربعين النووية للإمام النووي، فقد جمع في كتابه أربعين حديثاً من الأحاديث الموجزة للنبي صلى الله عليه وسلم، أما الكتب الحديثة، فتتمثل في الدراسات الأدبية، والبلاغية التي تناولت أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام، مثل كتاب: محمد الصباغ، بعنوان: الحديث النبوي مصطلحه بلاغته وكتبه، وكتاب: مصطفى صادق الرافعي بعنوان: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.

وبالتالي فالدراسات القديمة كانت تركز على شرح الحديث، أما الدراسات الحديثة، فكانت تركز على بعض جوانب اللغة مثل: دراسة الصور الفنية، والأساليب البلاغية في الحديث النبوي، ومن الدراسات التي عنيت بأدب الخطاب، كتاب: سعود إيداح بعنوان: أدب الخطاب في القرآن الكريم، وهو في الأصل رسالة دكتوراه، فقد تناول فيه صاحبه كل من الأدب، والخطاب بالإضافة إلى مختلف الآداب التي تجلّت في الخطاب القرآني.

واخترنا موضوع دراستنا هذه والتي كانت حول أدب الخطاب النبوي، لأسباب منها:

- ◀ رغبتنا في الموضوع، والافتتاح بأنّ هذا البحث من أعظم ما يصرف طالب العلم فيه وقته، وجهده، ذلك لأنّه مرتبط بكلام النبي صلى الله عليه وسلم.
- ◀ لأنّه أعرق الخطابات العربية وأقدسها، وأفصحها بعد القرآن الكريم.
- ◀ أهمية موضوع أدب الخطاب النبوي في الدراسات اللغوية، لما فيه من تجلّية لأرفع أساليب التعبير اللغوي، وبيان تأثيراتها على المتلقين.

◀ القيم الأدبية، والخلقية التي يميّز بها الخطاب النبوي، فهي نموذج أخلاقي رفيع له مقوماته وعناصره المتميزة.

◀ الحاجة إلى فهم أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

وبذلك تكون الأهداف المرجوة من هذا البحث كآآي:

◀ الكشف عن أدب النبي صلى الله عليه وسلم في خطابه، من ناحية استعمال الألفاظ، وقوة المعاني، من خلال إجراء الدراسة التحليلية التطبيقية.

◀ تحديد خصائص الخطاب النبوي التي جعلته يميّز عن غيره من الخطابات.

◀ الاستفادة من خطابات الرسول صلى الله عليه وسلم، وإبراز القيم الأخلاقية، والآداب التي ينبغي أن يراعيها المُخاطب.

وتوجّهنا في مسار دراستنا هذه، بحصر إشكالية البحث في السؤال التالي: ما هي

الآداب التي ينبغي للمخاطب أن يتحلّى بها من خلال السنة النبوية؟

وعلى إثر هذه الإشكالية يمكننا طرح التساؤلات التالية:

◀ ما معنى الأدب؟ وما هو مفهوم الخطاب؟

◀ ماذا نعني بأدب الخطاب؟

◀ ما هي أهم الخصائص التي تميّز بها خطاب النبي الكريم صلى الله عليه وسلم؟

◀ كيف كان خطابه صلى الله عليه وسلم لأُمَّته ولباقي الأمم؟

◀ ما هي الوسائل اللغوية والبلاغية التي ساهمت في إبراز هذا الخطاب؟ وكيف تضافرت

معا للوصول به إلى أرقى مستوياته من الفصاحة والبيان؟

◀ ما هي الآداب التي ينبغي أن يلتزمها المتكلم ليكون خطابه نافعا، جالبا له الأجر دافعا

عنه الإثم؟

وفي محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة، اتبعنا المنهج الوصفي التحليلي، الذي رأينا

بأنه ملائم لهذا الموضوع، وقد ارتأينا في كل ذلك أن تكون دراستنا، نظرية تطبيقية، تضمنت

ثلاثة فصول، فصلين نظريين، وفصل تطبيقي، بالإضافة إلى المقدمة وهي هذه.

أما الفصل الأول والمعنون ب: أدب الخطاب المفهوم والبنية، افتتحناه بتمهيد وقد اشتمل على مبحثين أساسيين هما:

المبحث الأول: كان مخصصا للحديث عن مفهوم أدب الخطاب، وقد تضمن التعريف بمصطلحي الأدب، والخطاب.

والمبحث الثاني: يتعلق بالحديث عن بنية الخطاب.

أما الفصل الثاني والمعنون ب: حول الخطاب النبوي، وقد اشتمل هو أيضا على مبحثين أساسيين هما:

المبحث الأول: تطرقنا فيه للحديث عن تعريف الخطاب النبوي.

والمبحث الثاني: كان للحديث عن خصائص الخطاب النبوي.

أما الفصل الثالث: فهو الفصل التطبيقي والمعنون ب: أدب الخطاب وتجلياته في الحديث النبوي الشريف، افتتحناه بتمهيد بسيط، وقد تضمن هذا الجانب التطبيقي من البحث، أدب النبي صلى الله عليه وسلم في الخطاب، والوسائل التي اتبعها وحث عليها صلى الله عليه وسلم.

وفي النهاية وكما هو المعتاد في كل بحث علمي، لا بد من خاتمة تتضمن أهم النتائج المتوصل إليها.

وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على مجموعة من المصادر، والمراجع أهمها: القرآن الكريم، وبعض كتب الحديث منها: صحيح البخاري، الأربعون النووية، وكذلك بعض المعاجم العربية أهمها: أساس البلاغة للزمخشري، لسان العرب لابن منظور، وهناك بعض المراجع الأخرى منها: الخطاب: لسارة ميلز، كتاب الأدب وفنونه لإسماعيل عز الدين، كما اعتمدنا على الرسائل الجامعية منها: تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث ل: مهى محمود إبراهيم العتوم، وهي رسالة دكتوراه، وغيرها من المصادر، والمراجع المذكورة في آخر هذا البحث.

ومن البديهي أن تواجه أي باحث صعوبات أثناء إنجاز بحثه، ومن الصعوبات التي واجهتنا:

◀ عدم قدرتنا على التنسيق واختيارنا المعلومات، وذلك لتعدد المؤلفات في هذا الجانب، وتشعب الموضوع.

◀ ولعل أكبر صعوبة واجهتنا التردد والخوف، لأننا خشينا أن لا نفي هذا الخطاب حقه من الدراسة، وذلك لارتباطه بالنبي صلى الله عليه وسلم، مما ينتج عنه رهبة تريك الدارس، وبالرغم من كل هذا، إلا أننا حاولنا جاهدين أن نتجاوز ذلك بالتركيز على استنباط أدب النبي صلى الله عليه وسلم في خطابه، دون أن ندخل في المسائل الفقهية والتشريعية.

◀ ومن الصعوبات أيضا التي اعترضت سبيلنا أثناء إنجاز هذا البحث هي ضيق الوقت، وصعوبة الحصول على بعض المصادر والمراجع.

ولكن رغم هذه الصعوبات إلا أننا جعلنا منها حافزا لإتمام هذا البحث، واستطعنا إنجازه بقدره الله عز وجل، وبفضل ما قدمه لنا الأستاذ المشرف الدكتور: حسين قاضي، من دعم معنوي ومادي، وما أحاطنا به من نصح وتوجيه، فمهما قدمنا له من شكر فلن نوفيه حقه، فله منا أسمى عبارات الشكر والتقدير والاحترام.

وفي الختام نسأل الله تعالى أن نكون قد وفقنا في إنجاز هذا العمل المتواضع، ونأمل أن يكون هذا البحث قد حقق الأهداف المسطرة، ويكون ذا فائدة لنا ولغيرنا من الطلبة، باذن الله تعالى ونسأل الله التوفيق والسداد.

الفصل الأول:

أدب الخطاب المفهوم والبنية

تمهيد:

قبل الاشتغال على الجانب التطبيقي للموضوع يلزمنا الاشتغال على الجانب النظري وذلك بوضع تعريفات للمفاهيم المتعلقة به، باعتبار الجانب النظري تمهيدا للجانب التطبيقي وهذا ما تقتضيه منهجية البحث العلمي.

وحتى نتعرف على أدب الخطاب بصفة عامة والخطاب النبوي بصفة خاصة كقيمة تواصلية إبلاغية عليا بعد القرآن الكريم، نحاول أن نضع تعريف للفظ أدب من المنظور اللغوي والاصطلاحي ومفهوم الخطاب في كل من التراث العربي والغربي، وذلك باعتبار تعريفات الخطاب متعددة بتعدد منطلقات وتوجهات الباحثين.

ولتحديد المصطلح أهمية كبيرة، "وفي هذا الشأن قال فولتير: مقولته الشهيرة قبل أن تتحدث معي حدد مصطلحاتك"¹. هنا إشارة إلى أنه على المتكلم أن يكون على دراية بالمصطلحات التي يستخدمها.

وباعتبار الخطاب عملية تواصلية إبلاغية، وحتى تتم هذه العملية لا بد من وجود طرفي الخطاب ومجموعة من العناصر الأخرى التي تتركب فيما بينها مشكلة ما يعرف بالبنية المكونة للخطاب. وهذا الذي نتناوله ونعالجه بشكل يمكّننا من معرفة ما يطلق عليه عناصر دورة التخاطب وإيجاد العلاقة بين هذه العناصر. وهذا ما يساعدنا على إيجاد تعريف واضح لأدب الخطاب ومعرفة بنية الخطاب.

¹ - قسيمة دليلة، استراتيجيات الخطاب في الحديث النبوي، ش ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، كلية الآداب واللغات، 2011-2012، ص7. نقلا عن: إبراهيم إيرش، حول حدود استحضار المقدس في الأمور الدنيوية، ملاحظات منهجية في مجلة المستقبل العربي، بيروت، ع/80، 1994، ص5.

المبحث الأول: مفهوم أدب الخطاب:

نتناول في هذا المبحث التعريف اللغوي والاصطلاحي، لكلا من لفظي الأدب والخطاب، وذلك حتى نتمكن من إيجاد تعريف لأدب الخطاب.

1- تعريف الأدب:

الأدب لغة:

لفظ الأدب متعدد المعاني والدلالات، فهو يدل على الأخلاق أو ما يعرف في وقتنا الحالي بالتربية والتعليم فيقال: فلان اختار لابنه مؤدبا أي مربيا أو معلما، كما أنه يدل على مختلف الفنون من نثر وشعر، وهو مرتبط بتطور وارتقاء الشعوب مثله مثل كل الألفاظ. "إن لفظ الأدب مثله مثل كل الألفاظ تقريبا، تولد في كنف التجربة الحسية المباشرة ثم ترتقي ذهنيا بارتقاء الشعوب وتطورها"¹.

والأدب كما جاء في لسان العرب: "الظرف وحسن التناول"². وذكر الزمخشري "أن الأدب هو من أدب الناس، وقد أدب فلان وأرب، وتقول الأدب مأدبة ما لأحد فيها مأربه"³، الأدب هنا يدل على دعوة الناس إلى الطعام، والآدب هو الداعي للمأدبة.

ويعني الأدب "رياضة النفس بالتعليم والتهديب على ما ينبغي ... جمعه آداب، وتطلق الآداب حديثا على الأدب بالمعنى الخاص والتاريخ والجغرافيا، وعلوم اللسان، والفلسفة، والآداب العامة، والأديب الحاذق بالأدب وفنونه"⁴. وعرفه الزبيدي: بأنه "هو الذي يتأدب به الأديب من الناس، سمي به لأنه يؤدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح،

1 - أبو علي محمد، مدخل إلى مفهوم الأدب الجماهيري، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، ليبيا، ط 1، 1988، ص 25.

2 - ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 1، دت، مج 1، مادة -أدب، ص 43.

3 - الزمخشري، أساس البلاغة، تح: عيون السود محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1998، ج 1، ص 22.

4 - مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، جمهورية مصر العربية، ط 1، 1980، مادة أدب، ص 9.

وذكر أنّ أصل الأدب الدعاء¹، الأدب بمعنى التربية والتعليم وتهذيب النفس، والمؤدب هو الذي يؤدب الناس إلى الحامد وبينهاهم عن المقابح، كما تطلق الآداب على الأدب بالمعنى الخاص والعلوم الأخرى مثل الفلسفة، والتاريخ وغيرها، ويقال بأنّ أصل الأدب الدعاء. "والأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل"². فالأدب إذا يطلق على الأقوال والأفعال المحمودة، كما أنه أصبح يعني التعليم والتدريب على الخلق الحسن والفضيلة، والسلوك الطيب.

الأدب اصطلاحاً:

وفي الاصطلاح كلمة أدب "littérature" في الإنجليزية و"littérature" كذلك في الفرنسية مأخوذة من كلمة "litera" اللاتينية، وهي بذلك توحى بالأدب المكتوب أو المطبوع، ولكن ينبغي أن يشمل تعريف الأدب ذلك الأدب الملفوظ كذلك³، فكلمة أدب في الفرنسية وحتى الإنجليزية مأخوذة من اللاتينية، والتي تعني الأدب المكتوب أو المطبوع، ولم تشمل هذه الكلمة ذلك الأدب الملفوظ.

والأدب هو تعبير عن مختلف التجارب الإنسانية وسيلته اللغة، يجمع بين المنفعة والمتعة، وهو بمثابة سجل لحياة الإنسان حيث يستمد منها مادته، ويقوم بدور المفسر والناقد والموجه للحياة، "قد قيل في الأدب إنه فن الكلمة التي تعبر عن التجربة الإنسانية بشكل يحدث الرضا الفني، جامعاً بين المنفعة والمتعة وأنه سجل حي لما رآه الناس في الحياة، بل هو تعبير عن الحياة وسيلته اللغة... هو يستمد من الحياة مادته لكنه، يدفعها ويوجهها، بل يفسرها وينتقدها"⁴.

¹ - الزبيدي محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: علي هلاي، وزارة الإرشاد والأبناء، الكويت، ط2، 1987، مادة أدب، ج2، ص 12.

² . المصدر نفسه، ص 12.

³ . إسماعيل عز الدين، الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط 9، 2013، ص 9.

⁴ . أبو علي محمد، مدخل إلى مفهوم الأدب الجماهيري، ص 32 .

ويعدّ الأدب "نفسه، شعره ونثره، فن من الفنون الجميلة وهو كذلك ينبع من الموهبة، ويفيض من الفطرة، ثم تسدده هذه العلوم و تهدي خطاه"¹، فالأدب فن من الفنون الجميلة سواء كان شعر أو نثر، بحيث يكون هذا الفن ناتج من موهبة وفطرة الأديب.

"ويمكننا القول بأن الأدب هو الاستخدام الفني للطاقت الحسية والعقلية، والنفسية، والصوتية للألفاظ، فإذا فقد الأدب القيم الجمالية وحرارة العاطفة فقد كونه أدبا، وحتى عندما يكون العمل الأدبي قائما على الفكر يجب أن يتضمن الحرارة القادرة على أن تحرك وجدان الإنسان"²، وهكذا فإنّ الأدب هو فن الكلمة سواء كانت مقروءة أو مسموعة، ويكمن الفن في الأدب في حسن استخدام الألفاظ، وتركيبها في جمل للتعبير عن مختلف تجارب الحياة من حزن وفرح وعواطف ومشاعر.

كما عرّف الأدب بأنه هو: "علم يحترز به عن الخلل في كلام العرب لفظا أو كتابة، أصوله: اللغة، والصرف، والاشتقاق، والنحو، والمعاني، والبيان، والعروض، والقافية، وفروعه: الخط، وقرض الشعر، والإنشاء، والمحاضرات ومنها التواريخ، والبديع ذيل للمعاني"³، يتضح من خلال هذا التعريف بأنّ الأدب ليس كونه فن من الفنون فقط، بل هو علم يحترز به العرب في كلامهم لاجتناب الخطأ.

¹ . بدوي أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، نهضة مصر، القاهرة، مصر، د ط، 2005، ص 24.

² - بالة نوارى، أدبية الخطاب النثري عند القاضي عياض، ش ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2008، 2007، ص 12.

³ - الكفوي أبو البقاء، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، مؤسسة الرسالة (ناشرون)، بيروت، لبنان، ط2، 1998، ص 68.

2. مفهوم الخطاب:

الخطاب وسيلة من وسائل الاتصال التي يعتمد عليها الانسان للتعبير عن حاجاته اليومية، وكذلك للتواصل مع أبناء جنسه عن طريق الكلام، ويكون قصد المتكلم إبلاغ رسالة معينة بغية الإقناع والتأثير في نفس المتلقي، وقد نال مصطلح الخطاب اهتماما كبيرا من قبل الدارسين قديما وحديثا في الفكر الغربي وحتى العربي، إذن "الخطاب ممارسة اجتماعية وهو عملية من عمليات الاتصال وإنتاج المعنى التي تكسبه الأبعاد المختلفة والتي تضمن له الانسجام وشروط التواصل، لأن الإنسان يلجأ إلى التعبير عن حاجاته اليومية عن طريق التواصل بالكلام مع أبناء جنسه، ولكنه سرعان ما يلجأ إلى مخالفة المألوف عن الكلام، وذلك إذا خرج هدفه من التواصل إلى الإقناع والقصد لتبليغ رسالة معينة، أو ما يصطلح عليه بأسلوب الخطاب، حيث أخذ هذا الأخير حيزا هاما من اهتمامات الدارسين قديما وحديثا"¹.

"وقد ورد لفظ الخطاب عند العرب قديما كما ورد عند الغربيين، مع درجات من التفاوت أو التقارب في معناه"²، إذن فلفظ الخطاب ورد عند العرب قديما، وهو ما نجده في المعاجم العربية، كما ورد أيضا عند الغربيين مع درجات من الاختلاف أو التقارب في المعنى. و"لفظ الخطاب من الألفاظ التي تتردد كثيرا بالاقتران بوصف آخر مثل الخطاب الثقافي، والخطاب الصوفي، الخطاب السياسي، الخطاب التاريخي، الخطاب الاجتماعي"³، فمصطلح الخطاب من الألفاظ التي تستخدم كثيرا، وهو يقترن بميادين مختلفة وهذا الذي يجعل الخطاب أنواع مثل: الخطاب السياسي، والعلمي والثقافي وغيرها.

¹ -بولحية محمد، الأسلوب البلاغي في القرآن الكريم، ش ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2010، ص 15.

² -بن ظافر الشهري عبد الهادي، استراتيجية الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص 34.

³ -المرجع نفسه، ص 34.

1.2. في التراث العربي:

ورد الخطاب في الثقافة العربية في عدة مصادر منها الكتاب والسنة النبوية، كما ورد في المعاجم العربية من بينها: لسان العرب لابن منظور، وأساس البلاغة للزمخشري في مادة خطب، وغيرها من المعاجم، وهو ما يساعد الباحثين على الرجوع بالكلمة إلى أصلها اللغوي على امتداد زمني بعيد، وورد الخطاب في النقد العربي القديم، كما نال هذا الأخير حيزاً هاماً من اهتمامات الأصوليين واللغويين العرب.

جاء لفظ الخطاب في القرآن الكريم في عدة مواضع وبصيغ متعددة، حيث ورد في حوالي اثنتي عشرة آية كريمة منها قوله تعالى: ﴿ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ [ص/23]، في هذه الآية ورد لفظ الخطاب بصيغة المصدر، وقد حمل معنى الغلبة في الخصومة والشدة والغلظة في القول. كما جاء اللفظ بمعنى عدم القدرة على التوجه بالكلام، وذلك في قوله عز وجل: ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ [النبأ/37]. وورد لفظ الخطاب كذلك في قوله عز وجل: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾ [ص/20]. قال ابن كثير في قوله تعالى: فصل الخطاب "الشهود والأيمان وهو الفصل في الكلام وفي الحكم"¹، أما ابن منظور فقال: "هو أن يحكم بالبينة أو اليمين وقيل في معناه أن يفصل بين الحق والباطل ويميز بين الحكم وضده"². كما جاء بمعنى الشأن أو الأمر صغر أو عظم³، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ [الحجر/31]. وورد لفظ الخطاب بصيغة الفعل وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [هود/37].

¹ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط 1، 1997، ج 7 (الصفات، الواقعة)، ص 59.

² - ابن منظور، لسان العرب، ص 1190.

³ - المرجع نفسه، ص 1190.

وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان / 63]. والمعنى في هذين الآيتين هو الكلام.

من خلال السياق الذي ورد فيه مصطلح الخطاب في الآيات السابقة نجده يوحى في معظمها بالكلام، وهذا ما أكدته تفسيرات القدماء، والمحدثين للآيات التي ورد فيها لفظ الخطاب.

ورد مصطلح الخطاب في الحديث النبوي الشريف ووظف بمعان وفي سياقات مختلفة منها: "إنه لحري إن خطب أن يُخطب" أي يحاب إلى خطبة يقال خطب إلى فلان فخطبه وأخطبه: أي أجابه¹، الخطاب هنا بمعنى الخطبة.

وورد مصطلح الخطاب في المعاجم العربية، فجاء في لسان العرب لابن منظور في مادة خطب بأن: "الخطب هو الشأن أو الأمر صغر أو عظم... يقال ما خطبك أي ما أمرك؟"².

"والخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان"³.

وورد أيضا في معجم الوجيز: "خاطبه مخاطبة وخطابا، كالمه وحادثه ووجه إليه كلاما ويقال خاطبه في الأمر، حدثه بشأنه"⁴، والخطاب الكلام... الرسالة⁵.

أما في أساس البلاغة للزمخشري فجاء في مادة خطب: "خاطبه أحسن الخطاب وهو المواجهة بالكلام... وكان يقوم الرجل في النادي في الجاهلية، فيقول خطباً واختطب

1 - ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: محمد الطاهر أحمد الزاوي، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ص45.

2 - ابن منظور، لسان العرب، ص 1194.

3 - المرجع نفسه، ص 1194.

4 - مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، ص 202.

5 - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط 4، 2004، ص 243.

القوم فلانا: دعوه إلى أن يخطب إليهم، ... وتقول له: أنت الأخطب البين الخطبة، فتخيل إليه أنه ذو البيان في خطبته" ¹.

إذن فالخطاب في المعاجم العربية هو الشأن أو الأمر، والمواجهة بالكلام أو مراجعة الكلام، كما يعني الرسالة، أي أن الخطاب هو رسالة موجهة من قبل مرسل معين إلى مرسل إليه معين قصد الإبلاغ.

وبالتالي فالخطاب لغة: هو المواجهة بالكلام والكلام هو الرسالة أو ما يخاطب به المخاطب غيره لغرض معين.

قد تطرق الأصوليون إلى مفهوم الخطاب الشرعي، فاستخدم **علي بن عبد الكافي السبكي** الخطاب بمعنيين: الأول بأنه يدل على الكلام، والمعنى الثاني أنه أخص منه وهو ما وجه من الكلام نحو الغير من أجل الإفادة، قد حددهما في قوله: "فحصل في الخطاب قولان أحدهما أنه الكلام، وهو ما تضمن نسبة إسنادية، والثاني أنه أخص منه وهو ما وجه من الكلام نحو الغير لإفادته" ².

وقد وافق **بدر الدين الزركشي، السبكي** إلى حد كبير في هذا القول، ويتضح ذلك عندما عرّف الخطاب بقوله: "إنه الكلام المقصود منه إفهام من هو متهيئ للفهم، وعرفه قوم بأنه ما يقصد به الإفهام أعم من أن يكون من قصد متهيئ أم لا" ³، يفهم من القول بأن هناك اختلاف في تعريف الخطاب، فمنهم من يرى بأنه الكلام الموجه إلى من هو متهيئ للفهم قصد إفهامه، وهناك من يرى بأنه ليس من الضروري أن يكون المقصود منه إفهام من هو متهيئ للفهم، وإنما يقصد به الإفهام عموماً.

من خلال التعريفات السابقة يتضح بأن مفهوم الخطاب اقترب من علم الأصول لأن هذا الأخير نال حيزاً كبيراً من اهتمامات الأصوليين، كما أنّ المعاجم العربية لم تخرج عن

¹ . الزمخشري، أساس البلاغة، ج 1، ص 255.

² . السبكي علي بن عبد الكافي، الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي، تح: شعبان محمد إسماعيل، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر، ط 1، 1981، ج1، ص 44.

³ . الزركشي بدر الدين، البحر المحيط في أصول الفقه، دار الصفوة، الغردقة، مصر، ط 2، 1992، ج1، ص 126.

المفهوم الديني حيث كانت لها صلة بالتفاسير، فبعضها أشار إلى تفسير الآيات التي ورد فيها لفظ الخطاب كما ورد عند بعض المفسرين.

أما مفهوم الخطاب في الحقول المعرفية الأخرى للتراث العربي، قد شكل حقلًا خاصًا به يوازي المعنى الأصلي أي المعنى القديم أحيانًا ويزيد عليه أحيانًا أخرى، وذلك بما يتوافق ومعطيات الحقل الجديد الذي يستخدم مصطلح الخطاب، "في هذه المرحلة اتخذ مفهوم الخطاب أبعادًا جديدة جعلته يقترب كثيرًا من المفهوم الحديث للخطاب، وكان الأهم في هذه المرحلة توسيع دلالة الخطاب، وتطويرها بالبحث التفصيلي عن عناصر الخطاب كل على حده، فقد تطور البحث التفصيلي عن عناصر الخطاب عند أبي حامد الغزالي لما يكشف عن وعيه المبكر بأهمية المخاطب (المتلقي) في إتمام عملية إنتاج المعنى داخل الخطاب، وذلك بأن يخلق الله تعالى في السامع علمًا ضروريًا بثلاثة أمور، بالمتكلم، وبأن ما سمعه من كلامه، وبمراده من كلامه فهذه ثلاثة أمور لا بد وأن تكون معلومة"¹، تعتبر عناصر الخطاب الحلقة الأهم في إتمام عملية التواصل عند أبي حامد الغزالي، وكما ذكر الشروط التي يجب أن تتوفر في المتلقي حتى يكون الخطاب ناجحًا.

أما أبو البقاء الكفوي فقد حدد الخطاب لفظًا ودلالة بقوله: "الخطاب: اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه: احترز "باللفظ" عن الحركات والإشارات المفهومة بالمواضعة و"بالمواضع عليه" عن الألفاظ المهملة، وبالمقصود به الإفهام عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع فإنه لا يسمى خطابًا، وبقوله: "لمن هو متهيئ لفهمه، عن الكلام لمن لا يفهم كالنائم"²، فالخطاب عنده يعني الكلام المتعارف عليه، والقصد منه إفهام المتلقي، وإن خرج عن هذا القصد فإنه لا يسمى خطابًا.

¹ الجودي لطفي فكري محمد، جمالية الخطاب في النص القرآني، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2014، ص 76. نقلا عن: أبو حامد الغزالي، المستصفي في علم الأصول، ص 184.

² الكفوي، الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ص 419.

كما أنّ الخطاب عنده حمل مفهوماً أكثر شمولاً لا ينحصر في الكلام اللفظي فقط، وإنما اعتبر الكلام النفسي جزءاً لا يتجزأ من الخطاب، وقد ذكر الخلاف الذي جرى في كلام الله هل يسمى قديماً خطاباً قبل وجود المخاطبين أم لا؟، موضحاً متى يسمى الكلام خطاباً ومتى لا نسميه خطاباً، فهو يواصل قائلاً: " فالخطاب إمّا الكلام اللفظي أو الكلام النفسي الموجه نحو الغير للإفهام، وقد جرى الخلاف في كلام الله هل يسمى بالأزل خطاباً قبل وجود المخاطبين تنزيلاً لما سيوجد منزلة الموجود أم لا؟، فمن قال: الخطاب هو الكلام الذي يقصد به الإفهام سمي الكلام في الأزل خطاباً، لأنّه يقصد به الإفهام في الجملة. ومن قال: هو الكلام الذي يقصد به إفهام من هو أهل للفهم، على ما هو الأصل لا يسميه في الأزل خطاباً¹، وقد بين بأنّ الخطاب نوعان: "تكليفي وهو المتعلق بأفعال المكلفين بالافتضاء أو التخيير، ووضعى وهو الخطاب بأنّ هذا سبب ذلك أو شرطه كالدلوك سبب للصلوات، والوضوء شرطاً لها، كما يذكر أشكال الخطاب وهناك خطاب الله المتعلق بذاته العليا، ويفعله وبالجمادات وبنوات المكلفين، وكل خطاب في القرآن الكريم ب " قل " فهو خطاب التشريف"².

من خلال تعريف الكفوي للخطاب نلاحظ بأنه وضع الحدود الكاملة لعناصر الخطاب، كما أورد الشروط اللازمة حتى يكون الخطاب ناجحاً.

أما التهنائي فقد عرّف الخطاب على أنّه " ... هو بحسب أصل اللغة توجيه الكلام نحو الغير للإفهام، ثم نُقل إلى الكلام الموجه نحو الغير للإفهام وقد يعبر عنه بما يقع به التخاطب، قال في الأحكام: الخطاب اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ

1 - المرجع السابق، ص 419.

2 - المرجع نفسه، ص 420.

لفهمه" ¹، إنَّ ما أورده التهناوي في تعريفه الخطاب لا يختلف ولا يزيد عما ذكره الكفوي في تعريفه للمصطلح، كما ربط المعنى اللغوي للخطاب بمعناه الاصطلاحي.

ويؤكد منذر عياشي في قوله: "أن يطوروا نظرية في النص خدمة لأداء المعنى، ودراسته وهذا يعني أنَّهم قد تجاوزوا المفهوم اللفظي للكلام، والمفهوم الجملي، ليستقر عندهم أن المتكلم في تعبيره عن حاجاته لا يتكلم بألفاظ، ولا بجمل ولكن من خلال نص، فاتسعت بهذا أمامهم دائرة البحث الدلالي، وانتقلوا من البحث من مفردة أو جملة إلى البحث في خطاب يتم فيه تحميل المفردات والجمل بدلالات يقتضيها موضوع الخطاب" ²، بأنَّ مفهوم الخطاب في التراث العربي شهد تطوراً كبيراً ليكُون موضوعاً مستقلاً بنفسه، حيث أنَّهم تجاوزوا المفهوم اللفظي للكلام، والمفهوم الجملي ليستقر عندهم أن المتكلم في تعبيره عن حاجاته، لا يتكلم بألفاظ ولا بجمل ولكن من خلال نص، فانقلوا من البحث في مفردة أو جملة إلى البحث في خطاب يتم فيه تحميل المفردات، والجمل بدلالات يقتضيها موضوع الخطاب، غير أنَّ أحمد المتوكل رأى بأنَّ الخطاب: "مجموعة من الجمل يتم بها التواصل بين مستعملي اللغة" ³، فالخطاب حسبه عبارة عن جمل يتم من خلالها التواصل بين أفراد المجتمع.

ويعرّف محمد مفتاح الخطاب بأنّه: "مدونة كلامية، وحدتٌ يتصل بالزمان والمكان ويوصف بأنّه تواصلية، تفاعلية، منغلقة في سمته الكتابية، له صفة التوالد والتناسل" ⁴، إنَّ تعريف محمد مفتاح للخطاب يختلف عن تعريف المتوكل، لأنَّ الخطاب عنده عبارة عن

¹ . التهناوي محمد علي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تح: علي دحروج، ترجمة د: جورج زيناتي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ج1، ص 749.

² . محمود إبراهيم العتوم مهى، تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث: دراسة مقارنة في النظرية والمنهج، رسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه، الجامعة الأردنية، قسم اللغة العربية وآدابها، 2004، ص 12.

³ . المتوكل أحمد، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، دار الأمان، الرياض، المغرب، دت، د ط، ص 18.

⁴ . مفتاح محمد، تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1992، ص 120.

مدونة كلامية وحدث يكون متصلا بزمان ومكان، تتم به عملية التواصل وهو تفاعلي غير منفتح في سمته الكتابية، له صفة التوالد والتكاثر.

حتى وإن كان الخطاب قد شكل في التراث العربي حضورا بازاغا تعددت منطلقاته تبعا لتعدد انتماءاته لأكثر من حقل فإن هذا المفهوم وللأسف الشديد ظل منتبيا للفكر العربي القديم، دون أن يلقى اهتماما أو تطورا في العصر الحديث¹، فمفهوم الخطاب في التراث العربي الحديث ظلّ منتبيا للفكر العربي القديم، دون أن يلقى أي اهتمام أو تطور من قبل المحدثين.

ومما سبق يلحظ بأن كل تعريفات الخطاب في التراث العربي سواء في القرآن الكريم أو المعاجم العربية، أو حتى عند الأصوليين، أو في النقد العربي الحديث تجمع على أنّ الخطاب هو الكلام، ويفترض وجود ثلاث عناصر أساسية والمتمثلة في: المتكلم، والسامع والرسالة وتتمثل هذه الأخيرة في الخطاب ذاته، كما يفهم أن الخطاب هو الذي يتم من خلاله التواصل، وأنّ الوسيلة التي تعمل على تحقيقه هي اللغة، أي أنّ الخطاب هو كل كلام أو حدث لغوي يحقق عملية التواصل، لذلك عمد الأصوليون إلى المزج بين الخطاب، والكلام باعتبارهما يدلان على مقصود واحد ألا وهو التواصل من أجل الإفهام.

وبالرغم من اتسام اللغة العربية بسعة معاجمها، إلا أنّ علماءها المحدثون يواجهون في كثير من الأحيان صعوبات في تحديد مفاهيم بعض المصطلحات، وبالأخص الوافدة من لغات أجنبية.

2.2. في التراث الغربي:

إن مصطلح الخطاب في التراث الغربي منبثق من توجه فلسفي، أي أصل ومصدر نشوء مفهوم الخطاب في التراث الغربي فلسفي، عكس أصل ومصدر نشوء المفهوم في التراث العربي الذي كان دينيا أصوليا، فأول محاولة تهدف إلى ضبط حدود مفهوم الخطاب

¹ . الجودي لطفي فكري محمد، جمالية الخطاب في النص القرآني، ص 77.

فلسفيا في الفكر الغربي القديم تعود للفيلسوف اليوناني أفلاطون والذي عمد إلى ضبط حدود العلاقة بين الخطاب، والمقال، ومازال هذا التوجه الفلسفي مهيمنا إلى يومنا هذا، وهذا ما نلمسه في القول التالي: "إن مفهوم الخطاب يظهر أول ما يظهر عند أفلاطون، فمع أفلاطون حيث يتماثل المقال مع العقل، بذلت أول محاولة لضبط المقال وعقلنته، وبناء منطقته على قواعد تستمد من داخل المقال نفسه، أكثر مما تستمد من داخل المقال نفسه، أكثر مما تستمد من أصل خرافي أو وضعي يفرض بدايته على المقال"¹، وكانت هذه المحاولة المبكرة تمثل البداية الحقيقية، والمهمة لتبلور ملامح الخطاب الفلسفي في الثقافة اليونانية، "ورغم أن هذه المحاولة جاءت مبكرة جدا في التراث الغربي إلا أنها مثلت البداية المهمة لتبلور ملامح الخطاب الفلسفي الحقيقي في الثقافة اليونانية"².

"أما أصل لفظ الخطاب discours فأخوذ عن اللاتينية discours sus ومعناه الركض هنا وهناك... إلا أن الحذر اللغوي اللاتيني أصبح يحمل معنى الخطاب أو ما اشتق منه من معان منذ القرن السابع عشر، فقد دل المصطلح على معنى طريق صدفى، ثم المحادثة والتواصل، كما دل على تشكيل صيغة معنوية سواء كانت شفوية أو مكتوبة عن فكرة ما"³، فأصل لفظ الخطاب مأخوذ عن اللاتينية، والذي كان يعني الركض هنا وهناك، ثم أصبح يحمل معنى الخطاب أو ما اشتق منه من معان، كما دل المصطلح على معان عديدة منها: طريق صدفى، المحادثة والتواصل، وقد دلّ على تشكيل صيغة معنوية سواء كانت منطوقة أو مكتوبة عن أي فكرة كانت.

وفي عصر النهضة ظهر كتاب رينيه ديكارت R.Discartes المسمى ب خطاب في المنهج، حيث شكل هذا الكتاب علامة ودليلا بارزا على العناية بالخطاب الفلسفي، فقد

¹ - محمد إبراهيم العتوم مهى، تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، ص 14.

² - عبد الله، إبراهيم، الثقافة العربية الحديثة والمرجعيات المستعارة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان/الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999، ص 59.

³ - شرشار عبد القادر، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، منشورات إتحاد الكتاب العربي، دمشق، سوريا، ط1، 2006، ص 12.

أراد أن يتجاوز رجال الكنيسة، ويسمع صوته لعامة المثقفين، وأهمية كتاب ديكارت تكمن في كونه تأسيساً للخطاب أكثر مما هو تفسير وتحديد للمفهوم ذاته¹، اهتم ديكارت من خلال كتابه خطاب في المنهج اهتماماً كبيراً بالخطاب الفلسفي، فأراد أن يتجاوز رجال الدين، ويكون خطابه موجهاً لعامة المثقفين، كما أن هذا الكتاب كان تمهيداً لمفهوم الخطاب في العصر الحديث حيث ارتبط مفهومه في هذا العصر باللسانيات، وهذا يعني أنّ الخطاب قبل عصر النهضة كان مرتبطاً برجال الدين فقط.

أما المفكر الروسي ميخائيل باختين **M.Bakhtine**، فعرف الخطاب على أنه: "خطاب في الخطاب وتلفظ في التلفظ لكنه في الوقت ذاته خطاب عن الخطاب وتلفظ عن التلفظ"².

إن تعريف الخطاب عند باختين يختلف عن سابقه أمثال ديكارت، حيث يفسر الخطاب تفسيراً اجتماعياً، كما أنه من خلال تعريفه للخطاب نفهم بأنه يفسر الخطاب بالخطاب نفسه، ومفهوم الخطاب عنده يتحدد عن طريق الحوار، ودراسة الخطاب عنده تعني دراسة عمليات التلفظ اللغوي في سياقها الاجتماعي.

يرى عدد كبير من الباحثين والدارسين على أن اللسانيات هي منطلق الدراسات اللغوية وذلك بفضل النتائج التي حققتها، فاستفادت منها العديد من الاختصاصات التي تربطها صلة بها، مما سمح بدخول عدد من المصطلحات إلى الحقول المعرفية الأخرى، ومصطلح الخطاب من المصطلحات التي اعتُمدت في مختلف التخصصات، كما أنه أصبح من البديهيات فأحياناً يترك دون تعريف، ويرد كثيراً في تحليل النصوص الأدبية وغير الأدبية، وهذا ما أكدته "سارة ميلز" في قولها: "مصطلح الخطاب بات مصطلحاً شائعاً في عديد من أفرع المعرفة منها: النظرية النقدية، وعلم الاجتماع، وعلم اللغة، والفلسفة، وعلم

¹ . ينظر: الجودي لطي فكري محمد، جمالية الخطاب في النص القرآني، ص 78.

² . المرجع نفسه، ص 80.

النفس الاجتماعي، وغير ذلك حتى إنه أصبح يترك دون تعريف كأنه صار من المسلمات، وهو يرد بكثرة في تحليل النصوص الأدبية وغير الأدبية"¹.

"والخطاب مصطلح مرادف ل:(الكلام)، بحسب رأي دي سوسير اللساني البنيوي، على اعتبار أنّ الكلام إنجاز لغوي فردي يتوجه به المتكلم إلى شخص آخر يدعى المخاطب، كما يرتبط الخطاب بعنصر اللغة انطلاقاً من أنّ اللغة نظام من الرموز يستعملها الفرد للتعبير عن مقاصده"²، وكون استعمال الخطاب ارتبط بفكرة ثنائية اللغة والكلام التي أقرها دو سوسير، والذي ميز من خلالها بين اللغة والكلام، يمكن القول: بأنّ الخطاب له جذوره في اللسانيات.

ويذهب الكثيرون إلى أنّ الريادة في استعمال مصطلح الخطاب وتحليله تعود إلى اللغوي الأمريكي هاريس Z.Haris، حيث يعتبر أول من أثار قضية الخطاب في اللسانيات، وذلك من خلال بحثه (تحليل الخطاب)، فعرف الخطاب على أنه: "ملفوظ طويل، أو هو متتالية من الجمل تكوّن مجموعة منغلقة، يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض"³. إنّ هاريس قد تجاوز حدود الجملة التي كانت تعتبر أكبر وحدة لغوية قابلة للوصف والتحليل نحو وحدات أكبر وهي الخطاب، فالخطاب عنده ليس جملة وإنما متتالية من الجمل، كما رأى أنّ العناصر المكونة للخطاب لا تجتمع مع بعضها البعض بشكل اعتباطي وإنما تتوزع بناء على نظام معين يشكل بنية الخطاب، وبالتالي فإنّه عمل على تطبيق منهجه التوزيعي على الخطاب.

¹ . ميلز سارة، الخطاب، ت عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 2016، ص 13.

² - فروم هشام، تجليات الحجاج في الخطاب النبوي دراسة في وسائل الإقناع، الأربعون النووية أنموذجاً، ش ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2009، ص 36.

³ - يقطين سعيد، تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التنبؤ)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1997، ص 17.

أما الباحث الفرنسي إميل بنفنست **Emil Benvenist** فقد عرّف الخطاب باعتباره: "الملفوظ المنظور إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل... وبمعنى آخر يحدد بنفنست الخطاب بمعناه الأكثر اتساعاً بأنه: هو كل تلفظ يفترض متكلماً ومستمعاً وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما"¹. من خلال تعريف بنفنست للخطاب نلاحظ بأنه يركز على التلفظ، وهذا لا يعني بأنه أهمل الملفوظ، كما وضح بأنّ الخطاب أو التلفظ ينبني علي:

طرفي الخطاب: المتلفظ وهو المخاطب، والمستمع وهو المخاطب.

الخطاب أو فعل التلفظ: وهو الرسالة المنجزة مكتوبة كانت أو منطوقة.

سياق التلفظ أو الخطاب: بما فيها الظروف المكانية والزمانية التي يتم فيها التلفظ بالخطاب.

الغاية أو الهدف من الخطاب: نية التكلم التأثير في السامع بأي طريقة.

من خلال التعريف الذي قدّمه هاريس للخطاب نرى بأنه يختلف عن تعريف بنفنست

نتيجة اختلاف المنطلقات والتوجهات، لأنّ هاريس سعى إلى تطبيق تصوره أو منهجه

التوزيحي على الخطاب، ويتضح ذلك من خلال تعريفه للخطاب، أما الخطاب عند بنفنست

"فهو وحدة لغوية تفوق الجملة، تولد من لغة جماعية، كما أن مفهوم الخطاب لديه يقابل

مفهوم الملفوظ، إذ يرى أنّ النظر إلى النص بوصفه بناء لغويًا يجعل منه ملفوظ، أما البحث

في ظروف إنتاجه وشروطه فإنه يجعل منه خطاباً"²، تأكّد من خلال تعريف كلّ من هاريس

وبنفنست للخطاب، بأنّ مفهوم الخطاب يختلف باختلاف التوجهات والمنطلقات.

¹ - المرجع السابق، ص 19.

² - المرجع نفسه، ص 22.

كما أنّ "بنفنتست يحدد ، (الخطاب) في استيعاب اللغة، عند الإنسان المتكلم"¹، "ويرى أننا بالجملة نكون قد غادرنا عالم اللغة بوصفه نسق معلومات ونلج في عالم آخر ألا وهو عالم اللغة كأداة للتواصل، تجد تعبيرها في الخطاب"².

فبنفنتست لم ينظر إلى اللغة باعتبارها مجموعة رموز تخضع لنظام معين يتجسد من خلال الجملة، وإنما دخل عالماً أوسع يركز على الوظيفة التواصلية التي تؤديها اللغة، كما أنّ الجملة عنده صارت خطاباً يتشكل عن طريق حدوث التواصل بين المتكلم والمستمع. والخطاب مرتبط بمرجعيات معينة، أي يتشكل وفق مرجعيات وبالتالي يمكن الحديث عن خطابات متعددة: سياسي، شعري، ديني، وغيرها من الخطابات. "فالخطاب إذاً يتشكل انطلاقاً من المرجعية، فالشعر ينبج الخطاب الشعري والسرد ينبج الخطاب الشعري... ويتحقق هذا كله بحسب وظيفة الخطاب المتميزة"³.

من خلال التعاريف السابقة للخطاب يتضح أنّه متعدد المعاني، فهو وحدة تواصلية إبلاغية ناتجة عن مخاطب معين، موجه إلى مخاطب معين في سياق معين، يدرس ضمن ما يسمى بلسانيات الخطاب، وهو تواصل لساني، ينظر إليه كإجراء بين المخاطب والمخاطب.

كما نستخلص أن مصطلح الخطاب لا يمكن حصره في معنى واحد، فقد كان له تاريخ معقد وحافل بالاستعمالات المختلفة من قبل الباحثين سواء في الفكر العربي، أو الفكر الغربي، "وما يجعل عملية تعريف الخطاب أعقد كما أشرنا من قبل هو أن أغلب المفكرين لا يحددون في استخدامهم المصطلح أي هذه المعاني يقصدون، كما أن أغلب المفكرين يعدّون حتى في هذه التعريفات الأساسية"⁴. ويعود هذا التعقيد والتعدد في تعريف الخطاب إلى أنّ

¹ - علوش سعيد، المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتب اللبناني، بيروت، لبنان / الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1985، ص 83.

² - ينظر: ميلز سارة، الخطاب، ص 16.

³ - بالة نوري، أدبية الخطاب النثري عند القاضي عياض، ص 19.

⁴ - ميلز سارة، الخطاب، ص 20.

أغلب المفكرين لا يحددون في استخدامهم المصطلح أي المعاني يقصدون، كما أنهم يعدلون في التعريفات الأساسية.

وإنّ تقديم مقارنة كافية للخطاب لا يمكن أن تتم انطلاقاً من حقل معرفي واحد بل انطلاقاً من تصافر حقول معرفية متعددة، نظراً لأن كل حقل من هذه الحقول قد قدم بخصوص الخطاب مجموعة من المفاهيم لا تستقيم دراسة الخطاب بدونها¹، وبالتالي فالاعتماد على حقل معرفي واحد لا يساعدنا على إيجاد مفهوم شامل وواضح للخطاب، بل يجب الاعتماد على حقول معرفية متنوعة، باعتبار أن كل حقل من هذه الحقول قدم عدّة مفاهيم لا تستقيم دراسة الخطاب إلا بها.

وفي الأخير يمكن تلخيص مفهوم الخطاب من خلال وضع الاصطلاح الأكثر عمومية له، "فهو نظام تعبير متقن ومضبوط"²، يعتبر الخطاب نظام، ويجري بين مرسل للرسالة ومنتلق لها، وفق سياق معين ضمن عملية اتصال.

وبعد تعريف كل من الأدب والخطاب يمكن بأن نستخلص مفهومًا أو تعريفًا لأدب الخطاب والذي يعني حسن التكلم مع الغير قصد الإفهام والتأثير، ويكون بين متكلم وسماع بحيث يحدث تفاعل بينهما، ويتمثل هذا الأدب في استخدام العبارات اللينة، والابتعاد عن كل الألفاظ الغريبة والسيئة التي تنفر المتلقي.

وفي أدب الخطاب امتصاص مسبق لرد الفعل المتوقع، حيث إنّه يساعد على استئزال الخصم وإطفاء سورة نفسه، أي شدّة نفسه في رفض الحق، "ويعين هذا الأدب على فهم دوافع المتكلم وأنه لا يريد الاستعلاء على المخاطبين، أو الانتقاص منهم أو الظهور عليهم، بل يريد لهم الرحمة والخير، وبهذا تتهيأ الفرصة للحوار والجدال بالتي هي أحسن"³.

1 - العربي ربيعة، الحد بين النص والخطاب، الحوار المتمدن، التربية والتعليم والبحث العلمي، 2012.

2 - بالة نواري، أدبية الخطاب عند القاضي عياض، ص 19.

3 - سعود إبداح عبد الرحمان، أدب الخطاب في القرآن الكريم، دروب للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، د ط، 2016، ص

ومن أدب الخطاب السلاسة في القول، وذلك لما له من أثر إيجابي على نفوس المتلقين، "وإن سلاسة القول كما تتألف التآفر، وتقرب البعيد، فإنها تزيد الأليف ألفة، والقريب قربا، وتمنحهما نفسيا على إتيان ما يطلب منهما من الخير، وتزيد همتها نشاطا، وفكرتهما انتقادا ورؤيتهما وضوحا"¹، فينبغي على المخاطب أن يلتزم بهذه الآداب.

والخطاب الطيب يقوي الصلة والمحبة بين الناس، "والقول اللفظ الغليظ يقطع مسالك الحق إلى القلوب، فكم من حق ضاع بسبب اللبس الذي اكتساه من الكلام اللفظ الغليظ، وكم من باطل وجد إلى النفوس مسلكه بسبب معسول القول، ولين الكلام"²، فلين الكلام أحب إلى النفوس من الكلام اللفظ الغليظ، فهو يزيد المودة والتآلف بين الناس.

1 - الخليلي أحمد بن أحمد، جواهر التفسير، مكتبة الاستقامة، مطابع دار جديدة عمان للصحافة، عمان، الاردن، ط2، 1986، ص 410.

2 - سعود إبداح عبد الرحمان، أدب الخطاب في القرآن الكريم، ص 11.

المبحث الثاني: بنية الخطاب

عند سماعنا لجملة بنية الخطاب، نفهم بأنّ الكلام لا بد أن يكون عبارة عن هياكل أو هيئة لشكل ما، وهذا التصور أو الفهم لكلمة بنية لم يأتي ذكاء أو بصفة عشوائية، وإنما أتى بفضل ما تختزنه الذاكرة من معلومات حول مدلولات البنية.

إنّ لفظة بنية وردت في الكثير من المصادر سواء في الفكر العربي أو الغربي، وقد حملت عدة مدلولات، فجاء في القاموس المحيط للفيروز آبادي:

"والبنية بالضم والكسر: ما بنيته ... وأبنيته: أعطيته بناءً، أو ما يبني به داراً، وبناء الكلمة لزوم آخرها ضرباً واحداً من سكون أو حركة لا لعامل"¹.

كما جاء في المعجم الوسيط: "البنية بالكسر ما بُنيّ، جمعها بُنى، وهي هيئة البناء، ومنه بُنية الكلمة أي صيغتها، وفلانٌ صحيح البنية"²، وصحيح البنية هنا تعني صحيح الجسم.

ورد المصطلح في كل من القاموس المحيط والمعجم الوسيط بمعنى "التشييد، والبناء والتركيب"، وهذا ما نجده تقريباً في كل المعاجم العربية، إذاً فكلمة بنية وما يتصل بها من مشتقات بنى بجميع مدلولاتها لا تكاد تخرج عن هيكل الشيء أو مكونه أو هيئاته.

أما في القرآن الكريم فلفظة بنية لم ترد بمعناها الشائع، وإنما استخدمت بصور مختلفة في أكثر من اثنتي عشرة مرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بَنِيَانٍ مَرصُوصٍ﴾ [الصف/4].

¹- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 2، 2005، ص 1264.

² -مجمع اللغة العربية، معجم الوسيط، ص 72.

كما وردت لفظة بنية بمعنى الجسم، حيث يمكن القول بأنّ بنية الكلمة تعني جسمها وهياتها التي تظهر عليها نطقاً وكتابة، وهذا ما يتضح في تعريف الكفوي للبنية: "والبنية بالضم عند الحكماء عبارة عن الجسم المركب من العناصر الأربعة على وجه يحصل من تركيبها مزاج، وهو شرط للحياة، وعند جمهور المتكلمين، هي عبارة عن مجموع جواهر فردة يقوم بها تأليفاً خاص لا يتصور قيام الحياة بأقل منها"¹.

أما في اللغات الأجنبية فإن كلمة بنية تشتق من الأصل اللاتيني "Stuere" وهي تعني البناء، واستخدمت هذه الكلمة في فن المعمار منذ منتصف القرن السابع عشر، وهذا ما نلمسه في قول صلاح فضل: "تشتق كلمة بنية في اللغات الأوروبية من الأصل اللاتيني (Stuere) والذي يدل على البناء، أو الصفة التي يقوم بها مبنى ما، ثم امتد مفهوم الكلمة ليشمل وضع الأجزاء في مبنى ما، من وجهة النظر الفنية المعمارية وبما يؤدي إليه من جمال تشكيلي، وتتص المعاجم الأوروبية على أنّ فن المعمار يستخدم هذه الكلمة منذ منتصف القرن السابع عشر"².

وفي الجانب الاصطلاحي عرفها الزواوي بغورة بقوله: "في التعريف الاصطلاحي تعني البنية الكيفية التي تنظم بها عناصر مجموعة ما، أي أنها تعني مجموعة من العناصر المتناسكة فيما بينها، بحيث يتوقف كل عنصر على باقي العناصر الأخرى، وحيث يتحدد هذا العنصر أو ذلك بعلاقته بمجموعة العناصر"³، من التعريف يتضح أنّ البنية تتألف من عناصر وأي تحول يحدث لأي عنصر منها، من شأنه أن يحدث تحولاً في باقي العناصر الأخرى، كما أن البنية هنا تعني الطريقة التي من خلالها تتألف وتتجانس أجزاء مجموعة ما، لأن هذه الأجزاء لا يكون لها معنى إلا في المجموعة ككل.

¹ - الكفوي أبو البقاء، الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ص 241.

² - فضل صلاح، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1998، ص 120.

³ - قاسم بن موسى بلعديس وتاورته العيد، بنية الخطاب الروائي عند محمد عبد الحليم عبد الله، ش مقدمة لنيل درجة ماجستير في الأدب العربي الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، كلية الآداب واللغات، 2006/2005، ص 12.

ومن هنا نستخلص بأن البنية مكونة من عناصر مركبة، تتركب فيما بينها بطريقة معينة والتي تبين خصائص المجموعة، على الرغم من أنه لكل عنصر جملة من الخصائص تميزه عن باقي العناصر الأخرى، كما أنّ البنية تتصل بتركيب الخطاب.

"وإذا كان الخطاب عملية من عمليات التلفظ اللغوي، فهذا لا يعني أنه بنية لغوية بحتة تنتجها مجمل القوالب الشكلية النحوية والصرفية الدلالية، بمعزل عن سياق التلفظ وما يكتنفه من ظروف أو ما يتضمنه من مقاصد"¹، يمكن القول بأن الخطاب بنية لغوية بحتة إذا كان متصلاً بسياق التلفظ، وما يكتنفه من ظروف أو ما يتضمنه من مقاصد.

وإنتاج الخطاب يقوم على عملية تواصلية تبادلية بين مستمع ومتكلم، بمعنى أن مرجعية الخطاب لا تعود إلى الذات فقط، أو المؤسسة، أو إلى قواعد البناء النحوي وإنما إلى الممارسة الخطابية وغير الخطابية، حيث أن هذه الممارسة الخطابية وغير الخطابية لا تقوم على أساس السبب والنتيجة من وراء هذه الممارسة، وإنما على أساس العلاقة التبادلية بين أطراف الخطاب، دون الاستغناء عن خصائصه اللسانية النظامية والمعجمية الدلالية، " وليس معنى هذا أن العملية التبادلية المنتجة للخطاب تستطيع أن تستغني عن ما يميز الخطاب من خصائصه اللسانية النظامية المعجمية الدلالية"².

"ومن هنا يمكن القول بأن الخطاب هو: المجال العام لكل المنطوقات، أو مجموعة متفردة من المنطوقات"، أو ... أو مجموعة من المنطوقات التي تنتمي إلى نظام واحد من التشكل والتكون، وهكذا يمكن الحديث عن الخطاب العيادي، والخطاب الاقتصادي، خطاب التاريخ، الطبيعي والخطاب النفسي"³، من القول يفهم بأن الخطاب مجموعة من المنطوقات التي تنتمي إلى نظام واحد من التكون والتشكل، وهذا الذي يعطي للمتكلم فرصة للكلام عن الخطابات عبر نوعيتها الدينية، والأدبية، والثقافية، والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

¹-الجودي لظفي فكري محمد، جمالية الخطاب في النص القرآني، ص 82.

² -المرجع نفسه، ص 82.

³ -بغورة زواوي، الفلسفة واللغة نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 157.

كما أنّ "الخطاب يرتكز على جملة من المتلفظات اللغوية أو التعابير التي تنظم بطريقة معينة لتنتج دلالة ما، وتحقق أثراً معيناً، وذلك من خلال إيجاد تفاعل مع المجال الاجتماعي الذي يعد مهاداً لتلقي موضوع الخطاب، وحينئذٍ تتاح لمثل هذا الخطاب فرصة التجادل مع غيره من الخطابات الأخرى، وبالتالي يشتبك مع وعي المخاطبين في محاولة لدفعهم إلى حقل قناعاته"¹، فالخطاب عبارة عن مجموعة من المتلفظات أو التعابير اللغوية، والتي تنظم بكيفية معينة لإنتاج دلالة ما.

والخطاب "وسيلة المتخاطبين في توصيل الغرض الإبلاغي من المخاطب إلى المخاطب، ويتسم بأنه كتلة بنيوية واحدة متماسكة الأجزاء"².

"وباعتبار الخطاب نظام وهذا النظام ليس في جوهره إلا بناءً فكرياً يحمل وجهة نظر، وقد تمت صياغته في بناء إستدلالي، أي بشكل مقدمات ونتائج"³، وبما أنّ الخطاب نظام فهو بناء فكرياً، وهذا ما جعله كتلة بنيوية متماسكة الأجزاء. ويجري الخطاب بين مرسل ومتلقٍ للرسالة ضمن عملية الإتصال، كما أن الخطاب إنجاز في الزمان والمكان يقتضي لحصوله شروطاً أهمها: المخاطب والخطاب والمخاطب، لأنّ الهدف الأساس من استعمال الكلام هو إيصال رسالة إلى شخص معين أو مجموعة من الأشخاص، ولذلك فإن استعمال الكلام يستوجب وجود عنصرين هامين لا يكون الخطاب إلا بهما والمتمثلان في: المتكلم الذي يؤلف الرسالة تبعاً لموهبته ورغباته، والمستمع الذي يقوم بفك رموز هذه الرسالة لفهمها، فلا بد إذا من أن تكون هناك رسالة يبثها المتكلم ليتلقاها المستمع الذي قد يكون شخصاً حقيقياً أو وهمياً متخيلاً من قبل المتكلم.

الخطاب عبارة عن جملة من العناصر التكوينية تسهم في تحقيق عملية التواصل والإبلاغ في الخطاب، وهذا حسب قول الكاتب السعودي عبد الهادي بن ظافر الشهري في

¹ - الجودي لطفي فكري محمد، جمالية الخطاب في النص القرآني، ص 83.

² - يونس علي محمد محمد، وصف اللغة العربية دلالياً، جامعة الفاتح، ليبيا، 1993، د ط، ص 135.

³ - الجابري محمد عابدي، الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط2، دت، ص 128.

كتابه استراتيجية الخطاب: "وهناك عدد من العناصر التكوينية تشترك في بلورة عملية التواصل في الخطاب، ويمكن معرفتها وفحصها من خلال النظر إلى الخطاب ذاته، بوصفه الميدان الذي تتبلور فيه كل هذه العناصر، مما يحيلها إلى عناصر سياقية"¹، ودور هذه العناصر لا يقتصر على لحظة التلفظ فقط، إنما يمتد إلى ما قبله أو ما يسمى بالظروف الخارجية التي تسهم في إنتاج الخطاب، ويمكن ذكر هذه العناصر في الآتي²:

- **المرسل:** وهو الذات المحورية في إنتاج الخطاب، لأنه هو الذي يتلفظ به من أجل التعبير عن مقاصد معينة، وبغرض تحقيق هدف فيه ويجسد ذاته من خلال بناء خطابه، حيث تتجسد اللغة، وتمارس دورها الحقيقي من خلاله، فبدون المرسل لا يكون للغة فاعلية، فالأسباب لغوية بحتة، شك كثير من اللغويين في إمكانية دراسة الدلالة اللغوية مستقلة عن مستعملها، ويكفي أن نتظر في النظام اللغوي عن مقولات أنا، وأنت، وهنا، والآن، لكي نتحقق من أن علم الدلالة في جانب لا بأس به يدخل تحت تعريف البراغماتية بأنها علاقة العلامات لمستعملها.

فالمرسل هو الذي يوظف اللغة في مستوياتها المتميزة بتفعيلها في نسيج خطابه، ذلك التفعيل الذي ينوع طاقاتها الكامنة، ويدرك ذلك بإنتاجه خطابات، ومن خلال ما جاء في كتاب إستراتيجية الخطاب لعبد الهادي بن ظافر الشهري، فإن المرسل هو المحرك الأساس للعملية الإتصالية حيث يكون له هدف التأثير على المتلقي، وذلك باختيار الألفاظ التي تليق بمقامه ومقام المرسل إليه و السياق الاجتماعي ، وأن اللغة لا يمكن أن تتجسد أو تمارس دورها الفعلي أو تصبح وجوداً له فاعلية إلا من خلال المرسل، وأهلية المرسل تمكنه من إنجاز بعض الأفكار اللغوية التي لا يمكن أن ينجزها إنسان عادي.

- **المرسل إليه:** هو الركن الثاني في العملية الإتصالية، والطرف الآخر الذي يوجه إليه المرسل خطابه، وقد أشار اللغويون القدماء في التراث العربي إلى تأثير المرسل إليه على

¹ - بن ظافر الشهري عبد الهادي، استراتيجية الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص 39.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 45-52.

المرسل عند إنتاجه خطابه، إذ أبرزوا دوره في مستوى الخطاب اللغوي، مثل المستوى النحوي من حيث التأنيث والتذكير والعدد ... وأبرزوا دوره أيضا في سياق الخطاب وأثر ذلك على الخطاب تداولياً.

والمرسل إليه هو الذي يتحدد على أساسه لغة الخطاب ومستواها، وبدل ذلك على أن المرسل إليه يكون حاضراً بشكل أساس في ذهن المرسل عند إنتاجه للخطاب سواء أكان حضوراً عينياً أم ذهنياً، وهذا الشخوص أو الاستحضار للمرسل إليه، يكون له دور كبير في حركية الخطاب، مما يسهم في قدرة المرسل التتويعية للخطاب، وهذا ما يمنحه أفقاً لاختيار الإستراتيجية أو الطريقة المناسبة لخطابه.

- **العناصر السياقية:** وهي الإطار العام الذي يسهم في ترجيح واختيار الآلية المناسبة لعملية الفهم والإفهام، أو الإقناع، والافتتاح بين طرفي الخطاب -المرسل والمرسل إليه حيث يمثل المرسل والمرسل إليه وما بينهما من علاقة من أهم عناصر السياق، وبالإضافة إليهما، فهناك مجموعة من العناصر المؤثرة في إنجاز عملية التواصل في الخطاب كمكان التلطف، وزمانه وما فيه من شخوص وأشياء، والظروف الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية، والمعرفة المشتركة التي تعد من العناصر المؤثرة في الخطاب، وهي الرصيد المشترك بين المرسل والمرسل إليه، حيث لا يكفي وجود المرسل والمرسل إليه لإتمام العملية التواصلية فلا بد من وجود علاقة ومعرفة مشتركة بينهما، فالعلاقة بين طرفي الخطاب من أبرز العناصر السياقية التي تؤثر في تحديد استراتيجية الخطاب المناسبة، واختيارها إذ يراعيها المرسل دوماً عند إنتاج خطابه، فلا يغفلها وذلك بوصفها محددات سياقها له دوره في إنجاز عملية التواصل وتحقيق هدف المرسل من عدمه.

إذا فللمعرفة المشتركة تأثيراً كبيراً على كل من المرسل والمرسل إليه، كما أنها مساعدة لهما فهي تمكن المرسل من تحديد الطريقة المثلى لإنتاج خطابه، والثاني أي المرسل إليه من فك شفرات الخطاب والوصول إلى هدف من وراء العملية التواصلية، وكذا التوصل إلى التأويل الصحيح للخطاب الموجه إليه من قبل المخاطب. وحتى يتمكن المرسل

من إفهام وإقناع المرسل إليه لابد من أن يكون على دراية بالمرسل إليه، وكذا بكيفية الوصول إلى هدف الخطاب، وكذا الأمر نفسه بالنسبة للمرسل إليه فيجب أن يكون على معرفة بالمرسل.

الرسالة: وهو ما يرجع إلى الخطاب ذاته، وهو ذلك الكل الجامع بين المرسل والمرسل إليه والعناصر السياقية، فالخطاب هو الرسالة الموجهة من المرسل إلى المرسل إليه في عبارات لغوية وآليات منقاة ضمن سياق معين، يفهم من خلال تفكيك لغة الخطاب للوصول إلى المعنى المقصود، أو الغرض المراد، "وهناك من يضع الرسالة مقابل الخطاب، نظراً للمعنى المشترك بينهما في عملية التواصل اللساني، والرسالة تتمثل في كونها مقطع كلامي يحمل معلومات يريد المرسل (المتكلم أو الكاتب) أن ينقلها إلى المرسل إليه (السامع أو القارئ)، ويفهمها الآخر بناءً على نظام لغوي مشترك بينهما"¹، الرسالة تعني الخطاب نفسه، وهي عبارة عن مقطع كلامي يحمل معلومات يريد المخاطب أن ينقلها للطرف الثاني وهو المخاطب، وتفهم بناءً على نظام لغوي مشترك بينهما.

فالخطاب إذاً يبني على أساس رسالة ينتجها ويوجهها مرسل إلى متلقٍ أو ما يسمى بالمرسل إليه، وتتنجز بوسائل داخل سياقٍ محدّد، في زمان، ومكان معيّن، قصد التبادل والإفهام والتأثير.

وقد ميّز جاكبسون نوعاً آخر من الخطاب، "حيث يكون فيه المتلقي والمرسل شخصاً واحداً، وهو ما يعرف بالخطاب الداخلي، أو التواصل الداخلي كما يشدد على أهمية التواصل الخارجي في إيصال الأفكار للآخرين والتعامل معهم، فهو لا يفتأ يذكر الحوار الداخلي أيضاً فالتواصل مع الآخرين لا يكتمل إلا باستبطان اللغة"²، يفهم بأنّ هناك نوع آخر من الخطاب وهو ما يسمى بالخطاب الداخلي، وأن التواصل مع الآخرين لا يتم إلا عن طريق اللغة.

¹ -إميل يعقوب وآخرون، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، دار العلم للملايين، بيروت / لبنان، ط 1، 1987، ص 215.

² -فروم، هشام، تجليات الحجاج في الخطاب النبوي، ص 39.

مما سبق يلحظ بأن عملية التواصل تتم من خلال رسالة بين باث وملتق، وتتجز هذه الرسالة وفق عناصر سياقية محددة قصد التبليغ والتأثير، كما نستخلص بأنه إذا كان طرفا الخطاب يمثلان المحور الأساسي في إنتاج الخطاب، أو في عملية التواصل، فإن العلاقة المشتركة بينهما لها دور هام في إتمام عملية التلطف بالتخاطب، من هنا اقتضت هذه العلاقة أن تقوم على بعض القواعد التي يمكن تسميتها بقواعد التخاطب، أو قواعد عملية التواصل، ومراعاة نوع العلاقة في بنية الخطاب بين المرسل والمرسل إليه له دور مهم في اختيار الكيفية المناسبة والمؤثرة في عملية التلطف بالخطاب.

والخطاب النبوي يعتبر وجه من أوجه التأثير القوي في المخاطبين، بل ومن أعظمها أثراً، كيف لا؟ وقد أخرجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الظلمات إلى النور في مدة زمنية ليست بالطويلة، ليسطع نور الحق والخير والعدل على الإنسانية جمعاء، وخطابه صلى الله عليه وسلم لا يقترن بزمان ولا بمكان محددين، فقد عمّت تأثيراته العالم الإسلامي بأسره، وامتدت تأثيراته عبر الزمن. وقد ساهمت الوسائل اللغوية المتعددة في الإرتقاء بدلالة الخطاب النبوي بأعلى مستويات التأثير البشري مع تنوع موضوعاته حيث كان كل خطاب نبوي أو حديث نبوي له موضوعه الخاص، ومع تنوع الموضوعات هناك اختلاف وتعدد المتلقين من المخاطبين عبر الأزمنة، ورغم كل هذا التنوع والتعدد فإنه كان هناك توحيد المرسل، والمتمثل في النبي صلى الله عليه وسلم الذي ارتكز في قوته الأساسية على التأييد الرباني، فهو الذي لا ينطق عن الهوى، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم/3-4]. الأمر الذي أثرى الخطاب وارتفع بمتلقيه إلى مدارج الرفق في الدنيا والآخرة طالما التزموا به وساروا على هديه.

والرسالة في الخطاب النبوي تتمثل في الحديث والأقوال والأفعال المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم، والموجهة إلى متلقين معينين، من هذه الخطب، خطبة حجة الوداع. والمرسل في أي خطاب كان، سواء دينياً أو اجتماعياً، أو سياسياً، يكون حاملاً لأحد الفعلين الأساسيين فإما أن يكون حاملاً لفعل الطلب، وإما أن يكون حاملاً لفعل الإخبار،

وهنا تتنوع الطرق والاستراتيجيات التي يستعملها المرسل لإنجاز هذين الفعلين فإما أن يصل المخاطب إلى قصده من خلال الأصل أي بدلالة اللفظ فقط، وإما العدول عن الأصل، وذلك بدلالة اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، حيث تجد لذلك المعنى دلالة ثانية يصل بها إلى القصد والهدف المراد الوصول إليه، كاستخدام الكناية والاستعارة والتشبيه...¹. فشكل الخطاب ليس الأساس الذي يعول عليه المرسل في الدلالة على مقصده، فالفعل اللغوي وحده لا يستطيع أن يحدد ما يحمله خطاب ما من معاني قصد المرسل توصيلها للمتلقي، وهذا ما ينتج علاقة مزدوجة بين شكل الخطاب وقصد المتكلم، فقد يتطابق شكل الخطاب مع قصد المتكلم. وقد لا يتطابق، وهنا يبرز مسارات لإنجاز الخطاب، يستعمل المرسل أيهما شاء للتعبير عن قصده، وفق عناصر السياق إما منطوق الخطاب أو ما يسميه علماء اللغة التداوليين المعنى الحرفي، أي ما يطلق عليه المعنى الواضح الذي يوجد به ظاهر اللفظ دون واسطة، أو (مفهوم الخطاب)، وهو ما نسميه بالمعنى العميق، أو ما أطلق عليه الشيخ عبد القاهر في البلاغة العربية (معنى المعنى)²، فمن غير المعقول أن يعتمد المتكلم على شكل الخطاب فقط للدلالة على مقصده، وإنما عليه أن يستعمل منطوق الخطاب أو مفهوم الخطاب للتعبير عن قصده وغرضه.

وإن استخدام السلطة من قبل المرسل في الخطابات النصية هي من الضرورات الفاعلة في تجسيد مفاهيم تلك الخطابات، بحيث يدركها المرسل إليه دون اللجوء إلى السؤال عن مدى امتلاك المرسل لها من عدمه، ولا شك أن هذا راجع إلى قدرة الأفعال اللغوية والتأثير على المتلقي، على الإنجاز، فقد يخفق المرسل في إقناع المرسل إليه، أو أنه أصدر أمراً أو نهياً دون امتلاكه لخاصية السلطة التي تمنحه القدرة الكافية على التأثير وعندئذٍ سوف يبوء فعله الغوي بالفشل، فلا يستطيع أن ينجز شيئاً من خلال خطابه بل قد

¹ - ينظر: بن ظافر الشهري عبد الهادي، استراتيجية الخطاب، ص 114-115.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 116 - 117.

يشير عليه السخرية، مما يمنح المرسل إليه فرصة التهكم به¹، فالخطاب بالنسبة للمرسل هو سلطة إنجازية لها قدرة التأثير على من حوله في المجتمع (المتلقي)، وهذه القوة التأثيرية التي يكتسبها الخطاب راجعة إلى تلك القدرة اللغوية التي يمتلكها المرسل، لأن اللغة هي الأداة الأهم في التفاعل مع الآخرين، فإذا استطاع المرسل أن يوظف هذه القدرات اللغوية توظيفاً جيداً فإنها تمنحه القدرة الكافية على التأثير في سلوكهم فإذا لم يوظف هذه القدرات بالشكل الملائم، فلا تكون له سلطة تأثيرية عليهم بل يصبح محل تهكم وسخرية من قبل الآخرين أي المتلقين.

الخطاب هو عبارة عن بنية لغوية أو تلفظية، يتشكل من وسائل الاتصال بهدف تبليغ رسالة، هذه الرسالة تكون موجهة من مرسل إلى مرسل إليه ضمن سياق معين، وفق علاقة تخاطبية، من خلال سلطة تضمن تحقيق الغرض المنشود الذي قصده المرسل من خلال خطابه وتكون له قوة التأثير على المتلقي.

¹ - ينظر: المرجع السابق، ص 222-254.

الفصل الثاني:

حول الخطاب النبوي

تمهيد:

تميزت الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم، إذ كان لها تراثا ضخما تناقلته الأجيال بالتواتر، ومنذ مئات السنين قد وصلنا الكثير من الأخبار والسير، وبفضل جهود العلماء المسلمين من أهل السنة، والتفسير، والحديث، وصلتنا أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التي درسوها دراسة وافية وشاملة من حيث الجمع والتحقق من صدق الرواة، ودقة ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، حتى استطاعوا أن يخرجوا للأمة تراثا قيما لا يقدر بثمن، وقد خص الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم بجملة من الخصائص والمميزات، وبذلك فالحديث النبوي الشريف يتميز عن غيره من أقوال العلماء، والفصحاء، والبلغاء والشعراء، فهو كلام رفيع، فصيح، بليغ يأتي بعد القرآن الكريم.

وهو أفصح الفصحاء لأنه صلى الله عليه وسلم من بني قريش وهم أكثر العرب فصاحة، وإخلاصا في اللغة، وتربى في بني سعد، وأنزل عليه الكتاب العزيز.

ولعل ما أتته صلى الله عليه وسلم من خصائص: جوامع الكلم، وفصل الخطاب، كما امتاز الخطاب النبوي بأسلوبه المختلف عن غيره من الخطابات، وهذا ما سنتناوله في هذا الفصل، أي سنتناول في الفصل تعريف الخطاب النبوي بما فيه الحديث النبوي الشريف، بالإضافة إلى جملة من خصائص هذا الخطاب.

المبحث الأول : تعريف الخطاب النبوي

الخطاب النبوي هو الكلام الموجه من أعظم الخلق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأمة الجمعاء، " فلا ريب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح الفصحاء، وأبلغ البلغاء، وكلامه صلى الله عليه وسلم في الذروة والسنام، وحديثه يلي في الفصاحة والبلاغة القرآن الكريم"¹، وبالتالي فالخطاب النبوي يأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، في فصاحته وبلاغته.

ويتضمن خطابه صلى الله عليه وسلم الحديث النبوي الشريف، فالحديث في اللغة كما جاء في لسان العرب لابن منظور بأنه: "الحديث من الأشياء، نقيض القديم، ويطلق على الكلام قليله وكثيره لأنه يحدث ويتجدد شيئاً فشيئاً، وجمعه أحاديث"².

وهو أيضا " اسم من التحديث، وهو الإخبار، وفي الكشاف الأحاديث اسم جمع ومنه حديث النبي صلى الله عليه وسلم"³، فالحديث كلمة مضادة للقديم، وتطلق أيضا على الكلام الذي يخاطب به الناس بعضهم بعضا، كما تعني الإخبار، ومنه أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.

والنبوي: "ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، أي ما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام"⁴.

والشريف: صفة لإضفاء الشرف عن كل ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فالنبي عليه الصلاة والسلام، لا يصدر عنه إلا شريف الأقوال والأفعال. وبالتالي فالحديث النبوي الشريف في اللغة هو كل إخبار أو كلام شريف صدر على النبي صلى الله عليه وسلم.

¹ - حامد هلال عبد الغفار، الإعجاز اللغوي في القرآن والسنة، الصحوت للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2011، ج 1، ص 231.

² - ابن منظور، لسان العرب، مج 2، ص 797.

³ - أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص 370.

⁴ - المرجع نفسه، ص 370.

أما في الاصطلاح: فالحديث النبوي هو كل ما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام، من أفعال، وأقوال، وأخبار، وتقارير، وتوجيه في كافة الشؤون المتعلقة بأمور الدنيا والآخرة ونقلت من جيل إلى جيل بفضل الرواة، وجهود العلماء من أهل السنة، والجماعة والحديث، ومن بين رواة الحديث: الإمام مسلم، الإمام البخاري، والترمذي وغيرهم، قال محمد سعيد البوطي في تعريفه للحديث النبوي: "ولكنه في اصطلاح علماء الحديث النبوي يطلق على ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة، فالكلمات التي تعزى إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم قولاً، والتصرفات التي تنسب إليه فعلاً، وسكوته عن تصرفات الآخرين إقرار، والمعاني التي تتلبس به وصفاً، كل ذلك سمي في الاصطلاح حديث"¹.

"ومن العلماء من يدخل في تعريف الحديث أقوال الصحابة، والتابعين وأفعالهم ولعل هذا أولى بالقبول، وأجدر ويشهد له صنيع جمهور المحدثين، فقد جمعوا في كتبهم بين أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، وأفعاله، وتقاريراته، وأقوال الصحابة والتابعين، وأفعالهم، و يأتي قريباً ما يعزز هذا القول ويؤكد في تعريف الحافظ والحجة " ². إذن فهناك من يضيف في تعريف الحديث، أقوال وأفعال الصحابة والتابعين، كما أنهم استعملوا ألفاظ عديدة تتصل بلفظ الحديث ومعناه، كالسنة، والخبر، والأثر، "ويستعمل أرباب هذا الاصطلاح كلمة سنة، كما أنهم قد يستعملون كلمة خبر، وأثر، ويريدون بها المعنى الذي يراد بالحديث، وربما أطلقوها على ما هو أعم من معنى الحديث، مع فروق دقيقة يحفل بها الفقهاء، وعلماء الحديث المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والأثر على ما كان موقوفاً على الصحابي والتابعي"³.

¹ - البوطي محمد سعيد، في الحديث النبوي الشريف والبلاغة النبوية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2011، ص 11.

² - الساكت طه محمد، في معنى الحديث لغة واصطلاحاً وما يتصل به، شبكة الألوكة، آفاق الشريعة، مقالات شرعية، علوم الحديث، 2014. www. Alukha. Net.

³ - ينظر: البوطي محمد سعيد، في الحديث الشريف والبلاغة النبوية، ص 11.

والسنة تعني السيرة والطريق القويم، وجاء في المعجم الوسيط بأنها: " الطريقة والسيرة حميدة كانت أم ذميمة، وسنة الله: حكمه في خليفته، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم: ما ينسب إليه من قول، أو فعل، أو تقرير، وفي الشرع: العمل المحمود في الدين مما ليس فرضاً، ولا واجباً... وجهها سنن. وأهل السنة: هم القائلون بخلافة أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما عن استحقاق، ويقابلهم الشيعة"¹.

أما في الاصطلاح فالسنة هي: "بمعنى الحديث وهي ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم خاصة"².

الخبر: "بمعنى الحديث، وقيل هو ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإلى غيره، فيكون أعم من الحديث وأشمل"³.

الأثر: "ما أضيف إلى الصحابي، والتابعي، وقديم يراد به، ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم"⁴.

إذن فالألفاظ التي تتصل بالحديث ومعناه يراد بها الحديث، مع فروق دقيقة أوردها علماء الحديث، وعليه فالمراد بالحديث في عرف الشرع: "ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكأثره أريد به مقابلة القرآن لأنه قديم"⁵.

فمعنى الحديث يدل على الجدة، فأطلق العلماء تسمية الحديث على ما يقابل القديم، وهم يقصدون بالقديم كتاب الله عزوجل، وبالحديث ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال... الخ.

1 - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص 456 .

2- ينظر: الساكت طه محمد، في معنى الحديث لغة واصطلاحاً وما يتصل به. www.alukha.net.

3 - العثيمين محمد بن صالح، مصطلح الحديث، مكتبة العلم، القاهرة، مصر، ط1، 1994، ص 05.

4- المرجع نفسه، ص 05.

5 - نبهان حسون السعدون ويوسف سليمان الطحات، جماليات وصف الجنة والنار في الحديث النبوي الشريف، دراسة أسلوبية موازنة، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العدد 13، 2013، مج 7، ص 07 .

المبحث الثاني: خصائص الخطاب النبوي:

لقد كان خطابه صلى الله عليه وسلم للناس جميعاً، بما فيهم المسلمين والكافرين، والمنافقين، والملوك وغيرهم، فكان خطابه لكل فئة بما يناسبها ويؤثر في وجدانها، وتفكيرها، فخطابه لأهل مكة ليس كخطابه لأهل المدينة، وخطابه للعرب ليس كخطابه للعجم، فهذا كله من بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد خصه الله سبحانه وتعالى بجملة من خصائص، لذلك خطابه ليس كأى خطاب بشري، وإنما هو وحي يوحى من الله تعالى على نبيه الكريم، وكان صلى الله عليه وسلم، يستعمل أحياناً الجمل القصيرة ذات الجرس الموسيقي الذي يقرع داخل الأذن، فيوقظ المشركين من سباتهم العميق إلى حقيقة المبادئ، والأفكار التي جاء بها القرآن الكريم، وأحياناً أخرى يخاطب المؤمنين برقة ورحمة.

ويمتاز خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بالسلاسة، وخلوه من الألفاظ الغريبة والسيئة، كما أنّ أسلوبه في الخطاب تنوع حسب اختلاف المخاطبين، فخاطب المنافقين، والكافرين حسب نفوسهم المنحرفة عن الإيمان فحذرهم الفتنة، والعذاب الأليم، كما أنّ النبي صلى الله عليه وسلم خاطب المسلمين، واليهود، والمشركين كلّ بما يتناسب مع ثقافته، فزاد بذلك الخطاب جمالاً ليشعروا بعظمته وبلاغته، وعالميته، كما أنّ خطابه صلى الله عليه وسلم، "تجد فيه الجمال في السبك، والجزالة في الدباجة، والوضوح في الدلالة، والدقة في الوصف، والتعبير، والإبداع في التشبيه والتصوير، والموسيقى الرائعة في الألفاظ، والإجادة في الحوار، والأصالة في العبارة والطبع، والإيجاز في القول، والتأثر بالقرآن الكريم، ومطابقة مقتضى الحال، ومجانبة التكلف"¹. فخطابه صلى الله عليه وسلم أرقى، وأدق خطاباً، ما جعله يتربع على قمة الأساليب والخطابات البشرية، ومن أفضل ما قيل في وصف خطابه صلى الله عليه وسلم ما قاله الجاحظ: "هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف ... استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصود في

¹ - الصباغ محمد، الحديث النبوي مصطلحه بلاغته، كتبه، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط04، 1981، ص65.

موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطلق إلا عن ميراث حكمه، ولم يتكلم إلا بكلام قد حق بالعصمة، وشد بالتأييد، ويسر بالتوفيق... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين فحواه، من كلامه صلى الله عليه و سلم¹، فهكذا كان كلامه صلى الله عليه وسلم فصيحاً بليغاً، سهل الفهم غير مكلف، وكل هذا كان بفضل التوفيق من الله سبحانه تعالى، وسيكون حديثنا في هذا الجزء منصبا على جملة من الخصائص التي تميّز بها الخطاب النبوي، والتي يمكن تحديدها في الآتي:

1. الخصائص البلاغية واللغوية في الخطاب النبوي

قد وُصِفَ حديثه صلى الله عليه وسلم بأنه: من جوامع الكلم، وأنه حكيم البيان وفصيح اللّغة، وقد قال مصطفى صادق الرافعي في هذا الشأن: " أما فصاحته صلى الله عليه وسلم فهي السمّت لا يؤخذ فيه حقه، ولا يتعلق بأسبابه متعلق، فإنّ العرب وإنْ هذبوا الكلام وحدثوه، وبالغوا في إحكامه وتجويده، إلا أنّ ذلك قد كان منهم عن نظر متقدّم ... بيد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب، على أنّه لا يتكلف القول، ولا يقصد إلى تزيينه، ولا يبغى إليه وسيلة من وسائل الصنعة"²، فيعدّ الحديث النبوي من أرقى النصوص فصاحة، ولقد أشار إلى ذلك النّبي صلى الله عليه وسلم فقال: "... أنا أفصح العرب غير أنّي من قریش، ونشأت في بني سعد بن بكر"³. إنّ " تعليله عليه السلام أسباب تقويم اللسان إلى أعلى درجة عرفها العرب، يدلّ على أنّ ألفاظ الحديث من لدنه، وأمّا قوله عليه الصلاة والسلام: (أوتيت جوامع الكلم)، فيحمل كل ما أتاه الله من حسان المعاني،

¹ - الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 7، 1998، ج2، ص 17 - 18.

² - الرافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط9، 1973، ص282.

³ - المرجع نفسه، ص285.

وكبارها تجمع له تحت لفظه"¹، فالنبي صلى الله عليه وسلم تميز بهذه الخصائص عن غيره من البشر، وقد تضمنت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الكثير من الظواهر البلاغية، وألوان الفصاحة وهي دليل على نبوته وعظمته، كما أنها من أبرز دلائل فصاحته وبلاغته. وسنتطرق في هذا الجزء إلى بعض الخصائص الفنية والبلاغية في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، مع ذكر نماذج توضيحية، وتتمثل هذه الخصائص في الآتي:

ومما سبق ذكره عن فصاحته صلى الله عليه وسلم وبلاغته، يمكن أن نحدد خصائصه البلاغية واللغوية كالآتي:

❖ الخلو:

ويكمن في لغة الحديث من حيث وصفه، وتركيبه وفيها يقول الرافي: "... إذا نظرت فيما صح نقله من كلام النبي صلى الله عليه وسلم على جهة الصناعتين اللغوية، والبيانية، رأيته في الأولى مشدد اللفظ، محكم الوضع، جزل التركيب، متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات: فخم الجملة واضح الصلة بين اللفظ ومعناه، واللفظ وضريبه في التأليف والنسق ... ورأيته في الثانية حسن المعرض بين الجملة، واضح التفصيل، ظاهر الحدود، جيد الرصف، متمكن المعنى، واسع الجمل في تصريفه، غريب اللمحة، ناصع البيان، ثم لا ترى فيه إحالة، ولا استكراها... ولا توسعا من ضيق، ولا ضعفا في وجه من الوجوه"². فخطابه صلى الله عليه وسلم يتصف بالجزالة، والوضوح فلا تجد فيه اضطرابا ولا خطأ، "أما اللغة فهي لغة الواضع بالفطرة القوية المستحكمة، والمنصرف معها بالإحاطة، والاستيعاب، وأما البيان فبيان أفصح الناس نشأة، وأقواهم مذهبا ... وأما الحكمة فحكمة النبوة... وتأديب الله"³، فلغة النبي صلى الله عليه وسلم كانت بالفطرة، وهو أفصح الناس نشأة، وحكمته تكمن في حكمة النبوة.

1 - لاشين عبد الفتاح، من بلاغة الحديث، شركة مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع، ط1، 1982، ص12.

2 - الرافي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص325.

3 - المرجع نفسه، ص326.

❖ الاستيفاء:

أي أنه صلى الله عليه وسلم لم يتعلم عن أحد، ولم يتمرن على القول، وإنما كان ذلك نعمة له من الله سبحانه وتعالى، وإلهاما ووحيا، فعلمه ما لم يكن يعلم، قال تعالى: ﴿ أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق/3-5].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم، المختار لوهي الله المخصوص بكتابه عزوجل، المنتزه عن النقص، الذي يتميز به كلام الفصحاء قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم/3-4]. وبالتالي تمكّن من تبليغ الرسالة المحمدية على أكمل وجه، فلا يعجزه سؤال السائلين، فهو يجيب على كل الأسئلة، وله القدرة على إسكات المكذبين، ليكون حجة على الكفار، وعلى الناس جميعا، لهذا فالحديث النبوي استوفى المعنى وأدى الغاية، والمبتغى من الرسالة الربانية.

❖ قوة ألفاظه:

قبل أن نبدأ في الحديث عن الألفاظ وحسن توظيفها في الخطاب النبوي نشير إلى أنه صلى الله عليه وسلم، كان لديه معجما لغويا ضخما، ساعده على انتقاء الألفاظ المناسبة لخطاباته، فهو من بني قريش، وترى في بين سعد بن بكر، ونزل عليه الكتاب العزيز، فجمع بذلك بين فصاحة مكة، وفصاحة بني سعد، بالإضافة إلى الألفاظ التي اكتسبها من القرآن الكريم.

وقد تميزت ألفاظه، صلى الله عليه وسلم، بالوضوح في الدلالة والخلو من كل عيب، كما تميزت بالفصاحة، والجزالة، والفخامة، فقد جمع بين فخامة البداوة، وفصاحتها، ورقة الحضارة وعذوبتها، فكلامه صلى الله عليه وسلم، عالي الفصاحة، والبلاغة في حروفه، وكلماته، وتراكيبه في هذا الطبع البلاغي الذي فطر عليه وضعا، واشتقاقا، وتقليبا، ومخارج صافية رائقة، وتركيبا، اجتمع له إحكام التنضيد، والتنسيق¹، أما الألفاظ الغريبة التي وردت

¹ . حامد هلال عبد الغفار، الإعجاز اللغوي في القرآن والسنة النبوية، ص232.

في حديثه صلى الله عليه وسلم، فكان مردها إلى اختلاف المخاطبين الذي خاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم، فكان خطابه صلى الله عليه وسلم، يختلف باختلاف الشعوب والقبائل، والديانات، فقد خاطب كل أحد بما يناسبه، يقول الخطابي: مبينا سبب ورود الغريب في حديثه صلى الله عليه وسلم: "إنه صلى الله عليه وسلم بعث مبلغا ومعلما، فهو لا يزال في كل مقام يقومه، وموطن يشهده يأمر بمعروف، وينهى عن منكر، ويشرع في حادثة ويفتي في نازلة، والأسماع إليه مصغية، والقلوب لما يرد عليها في قوله واعية، وقد تختلف عنها عباراته، ويتكرر فيها بيانه ليكون أوقع للسامعين، وأقرب إلى فهم من كان أقل فهم وأقرب بالإسلام عهدا، وأولوا الحفظ والإتقان من الفقهاء ... وقد يتكلم صلى الله عليه وسلم، في بعض النوازل، وبحضرته أخلاط من الناس قبائلهم شتى، ولغاتهم مختلفة، ومراتبهم في الحفظ والإتقان غير متساوية وليس كلهم، يتيسر لضبط اللفظ، وحصره، أو يعتمد لحفظه ووعيه، وإنما يستدرك المراد بالفحوى، ويتعلق منه بالمعنى ثم يؤديه بلغته، ويعبر عنه بلسان قبيلته، فيجتمع في الحديث الواحد إذا انشعبت طرقه عدة ألفاظ مختلفة موجبا شيء واحد ... والمعنى واحد " ¹.

فسبب استخدام النبي عليه الصلاة والسلام، غريب الألفاظ في أحاديثه مراعاة أحوال المخاطبين بكل اختلافاتهم.

والعناية بحسن انتقاء الكلمة تعد مساهمة فاعلة في نشر الذوق الرفيع بين أفراد المجتمع، فالكلمة من أقوى وسائل التواصل بين الناس، وإذا انتقلنا للحديث عن جمالية ألفاظ الحديث النبوي الشريف نقول إنه صلى الله عليه وسلم: " قد تكلم بألفاظ اقتضبها لم تسمع من العرب قبله، ولم توجد في متقدم كلامها كقوله: (مات حنفاً أنفه)، وقوله: (حمي الوطيس)... ومن فصاحته وسعة بيانه أنه قد يوجد في كلامه الغريب الوحشي الذي يعيا به

¹ . الخطابي محمد، غريب الحديث، تح: عبد الكريم إبراهيم العرابوي، جامعة أم القرى، مكة تالمكرمة، المملكة العربية السعودية، ط2، 2001، ج1، ص 69.

قومه وأصحابه وعامتهم عرب صرحاء، لسانهم لسانه، ودارهم داره¹، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يضع كل لفظة في موضعها وهذا من أبرز مظاهر عظمته، وفصاحته، وبراعته في حسن اختيار الألفاظ، وتوظيفها، ولبيان ذلك تأتي بنماذج من أحاديثه صلى الله عليه وسلم منها:

قوله صلى الله عليه وسلم: " مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به"². فاختار النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه لفظ الغيث بدلا من الألفاظ الكثيرة القريبة كلفظ المطر، والودق، والوايل وغيرها، واستعمل هذا اللفظ لتأدية المعنى المراد على أدق وجه، والتي لا تؤديه الألفاظ الأخرى، فلفظة الغيث تدل على المطر الذي يأتي عند الحاجة إليه، و يكون دائما ملائما ونافعا غير مؤذ، فالغيث يحيي الأرض الميتة فتنبت فيها الأشجار، والعشب فكذاك ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، من تعاليم الدين الإسلامي قد أحيا القلوب.

واستعمل الرسول صلى الله عليه وسلم لفظة الغيث ليدل على شدة احتياج الخلق إليه، فقد بعثه الله تعالى رحمة وهدى للعالمين.

ومن المواضع التي تتجسد فيها براعة الرسول صلى الله عليه وسلم، في اختيار ألفاظه وتمكنه في التصرف في مفرداته مع مراعاة المقام وملاءمة السياق، قوله صلى الله عليه وسلم في وصف شدة المعركة بين المسلمين والكافرين يوم حنين: "وقوله في صفة الحرب (الآن حمى الوطيس)، والمعنى من الحديث هو اشتدت الحرب "الوطيس: هو التور

1 - المرجع السابق، ص 66.

2 - أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، رقم الحديث: 79.

ومجتمع النار والوقود، فهما كانت صفة الحرب فان هذه الكلمة بكل ما يقال في صفتها، وكأنها هي نار مشبوبة من البلاغة تأكل الكلام أكلا، وكأثما هي تمثل لك دما ، نارية أو نارا دموية¹.

فكلمة وطيس مستعملة استعمالا مجازيا ولو استخدم النبي صلى الله عليه وسلم، لفظة أخرى مكان الوطيس مثل أشعلت الحرب لما أدت المعنى الذي كان يريده، ولما كانت لها أثر ووقع على المسلمين، فكانت بمثابة تحفيز وتشجيع على خوض الحرب، فقد شبه الرسول صلى الله عليه وسلم، اشتداد المعركة باشتعال وانتقاد النار، وشبهت بالنار لأنها تأكل أهلها كما تأكل النار حطبها، فعبارة حمى الوطيس أجمل العبارات وأدقها وأشد الاستعارات وقعا على النفوس.

وامتلاك النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعجم الكبير من الألفاظ جعل حديثه أرقى الخطابات، وأشدها تأثيرا على نفوس المتلقين، لأن النبي صلى الله عليه وسلم، كان لا يستعمل إلا الألفاظ الراقية ذات المعنى البليغ، والفصيح، والرفيع، وذلك من أدبه صلى الله عليه وسلم، ومراعاة لأحوال المخاطبين والمناسبة وظروف الخطاب.

❖ الإيجاز والاختصار في الألفاظ والشمول في المعنى:

فالإيجاز كما هو معروف: هو التعبير عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة. والاختصار كما قيل: فهو حذف الفضول وتقريب البعيد، فمثلا يقال اختصار المسافات، أي تقريبها، فالاختصار غير الإيجاز عند أهل الاختصاص من علماء البلاغة، وغيرهم من العلماء الذين اهتموا بدراستهما.

قد اتسم الخطاب النبوي بخاصيتي الاختصار والإيجاز، فخطاب النبي صلى الله عليه وسلم، قليل اللفظ كثير المعنى ويتجلى هذا في قوله صلى الله عليه وسلم: "بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب وبيننا أنا نائم أوتيت مفاتيح خزائن الأرض فوضعت في

¹ - الرافي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط9، 1973، ص

يدي¹ هذا الحديث يبين بأن الله سبحانه وتعالى اختصر له الكلام اختصاراً فجمع له المعاني الكثيرة في ألفاظ يسيرة، ليسهل على السامعين حفظه ولا يشق عليهم تبليغه، وهو كما قال الجاحظ في كتابه البيان والتبيين: "هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجلّ عن الصنعة ونزّه عن التكلف"²، فهنا الجاحظ يصف كلام المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وقد اهتم العلماء قديماً وحديثاً بخاصية الإيجاز، والاختصار في الحديث النبوي وأجمل ما قيل عن هذه السمة، ما قاله مصطفى صادق الرافعي: "ومن كمال تلك النفس العظيمة، وغلبة فكره صلى الله عليه وسلم على لسانه، قلّ كلامه وخرج قصد في ألفاظه، محيطاً بمعانيه، تحسب النفس قد اجتمعت في الجملة القصيرة، والكلمات المعدودة بكل معانيها، فلا ترى الكلام ألفاظاً ولكن حركات نفسية في ألفاظ، ولهذا كثرت الكلمات التي انفرد بها دون العرب، وكثرت جوامع كلمه، كما ستعرفه، وخلص أسلوبه، فلم يقصر في شيء، ولم يبالغ في شيء، واتسق له من هذا الأمر على كمال الفصاحة، والبلاغة ما لو أراد مريد لعجز عنه، ولو هو استطاع بعضه لما تمّ له في كل كلامه، لأنّ مجرى الأسلوب على الطبع، والطبع غالب مهما تشدد المرء وارتاض ومهما تثبت وبالغ في التحفظ"³، إنّ أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وإنّ نظمت بألفاظ قليلة، غير أنّها اتسمت باتساع المعنى، فقد سلّم كلامه صلى الله عليه وسلم بهذا الإيجاز من الإطناب المؤدي بالسامع إلى الملل، ومن الوقوع في الخطأ.

1 - أخرجه البخاري، كتاب التعبير، باب المفاتيح في اليد، رقم الحديث 7013.

2 - الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ص17.

3 - الرافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص300.

وما قاله أبو هلال العسكري في وصف حديث النبي صلى الله عليه وسلم، " بعد أن أورد روائع من كلامه صلى الله عليه وسلم، فمعاني هذا الكلام أكثر من ألفاظه، وإذا أردت أن تعرف صحة ذلك فحلها وابنها بناءً آخر، فإنك تجدها في أضعاف هذه الألفاظ"¹.
فكلام النبي عليه الصلاة والسلام كان موجزا لأنه كان يكره الثثرة، والثرثارين فقد قال عليه الصلاة والسلام: "إنَّ أبغضكم منِّي مجالس يوم القيامة أساوؤكم أخلاقا، والثرثارون المتشدقون المتفيهقون"².

ومن جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم، قوله: " كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"³، استعمل النبي صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث صورة بيانية والمتمثلة في التشبيه البليغ، حيث شبه النبي صلى الله عليه وسلم، مقام المؤمن في الدنيا بحال أحد يقيم في بلاد غير بلاده، أي بلاد الغربة، "فكما لا نجد في الغريب ركونا إلى الأرض التي حل فيها أو أنس بأهلها، ولكنّه مستوحش في مقامه مهما طالّت إقامته لا يشغل نفسه بدنيا الناس، بل يكتفي باليسير منها فكذلك حال المؤمن مع الدنيا، فلا ينبغي له أن يتخذها وطنا أو مسكنا فيطمئن فيها، وإنما ينبغي أن يكون فيها كالغريب مهما طالّت إقامته في البلد الذي اغترب فيه، فاتّه ليس من أهله وسيعود يوما ما إلى بلده، فهو دائما على جناح السفر يهيء جهازه للرحيل"⁴، فهذا الحديث رغم قلة ألفاظه إلا أنه حمل معاني كثيرة، وعظيمة، وحكما بالغة. "والرائع في إيجاز الحديث أنه بعيد عن التكلف، وأنه كان سجية للنبي صلى الله عليه وسلم يصدر عنها في حديثه كله طويلة وقصيرة، وكان صلى الله عليه وسلم يأمر به أصحابه "فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: لجرير بن عبد الله البجلي: (يا جرير

1 - الصباغ محمد، الحديث النبوي مصطلحه، بلاغته، كتبه، ص 107.

2 - المرجع نفسه، ص 109.

3- آل الشيخ صالح بن عبد العزيز، شرح الأربعين النووية للإمام النووي يحيى بن شرف، تح: عادل بن محمد مرسي رفاعي، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 2010، رقم الحديث: 40، ص519.

4 - حفان مليكة، الخصائص الجمالية في الحديث النبوي الشريف، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، 2018. www.alihyaa.ma.

إذا قلت فأوجز، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف)، وعن سفيان بن عبد الله قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحد غيرك. قال: (قل آمنت بالله ثم استقم)، كلمتان اثنتان جمعتا كل خير، وأحاطتا بجوانب الإسلام كلها"¹.

فالنبي صلى الله عليه وسلم بايجازه جمع الكثير من الخصائص الأسلوبية، والصور الفنية، فكان صلى الله عليه وسلم بعيد عن التكلف، والصنعة اللفظية، وكان دائماً مجدداً في الألفاظ، ويستخدم الألفاظ القليلة الموحية إلى معان كثيرة، مع الوضوح في الألفاظ، والدقة في التعبير، فكلامه صلى الله عليه وسلم لا يضاهيه كلام العرب.

❖ **التصوير في الحديث النبوي الشريف:** من خصائص الحديث النبوي حسن التصوير الموحى والتشبيه الموضح.

فالنبي صلى الله عليه وسلم، من أجل توجيه المسلمين توجيهها أخلاقياً، وتربوياً، وعقائدياً اعتمد على طرق متعددة منها: التعبير بالصور البيانية وغيرها من الطرق، من أجل التأثير والإقناع، لتخلق انفعالا لدى المتلقين، "ونقصد بالصورة ذلك التركيب اللغوي الذي تبرز فيه الألفاظ بالمعاني في سياق بياني خاص وموحٍ بمعاني ودلالات، تحمل التأثير والتوصيل لتخلق انفعالا لدى المتلقى والمشاركة معه، إن وظيفة الصورة لا تنحصر في توضيح المعنى أو تحقيقه، لأن المعنى يمكن أن يتحقق بدونها أو غيرها، وإنما تتجاوز ذلك إلى خلق معان خاصة غنية بالإحياءات التي لا يمكن أن يفي بها التعبير الحقيقي أو المباشر، لتحدث أثراً واستجابة في نفوس متلقيها"².

فحديث النبي صلى الله عليه وسلم غني بألوان التصوير، والبيان والمجاز المحرك للنفس، والمصور للمعنى، وبديع القول، وقد استخدم النبي صلى الله عليه وسلم وسائل التصوير المختلفة من كناية، وتشبيه، واستعارة وغيرها من الأساليب "وإن وفرة الصور الجميلة لتدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤثر التعبير عن المعنى المجرد

¹. ينظر: الصباغ محمد، الحديث النبوي مصطلحه بلاغته، كتبه، ص 109-110.

². حفان مليكة، الخصائص الجمالية في الحديث النبوي الشريف، مجلة الإحياء. www.alihyaa.ma

بالصورة الحسية المستمدة من حياة المخاطبين، لأنّ ذلك ادعى إلى أن يفهموا مراده، ويتأثروا به، ولأن الصورة البيانية تزيد في قيمة الأثر الأدبي، وترفع من شأنه، و تكسو المعاني أبهة وتضاعف قواها في تحريك النفوس لها ¹.

ومن بين طرق التصوير في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم مايلي:

التصوير بالاستعارة: فالاستعارة من الصور البيانية الراقية التي تزيد من جمالية الخطاب، وتقوية المعاني وتأكيدها، وقد استعملت في الحديث النبوي بنوعيتها: التصريحية، والمكنية، وذلك لما تضيفه من المعاني الكثيرة بأسلوب وجيز، سعيا لتوضيح معاني الدين الإسلامي، واستخدمت كذلك من أجل الإقناع والتأكيد. ومن تجليات استعمال الإستعارة في الحديث النبوي، قوله صلى الله عليه وسلم: لأنجشة وكان يسير بالنساء في هوادجهن، وهو يحدوا بالإبل، وينشد الشعر، فكانت الإبل تسرع، والنساء فيها تضطرب اضطرابا شديدا. "رويدك ياأنجشة، لا تكسر القوارير"²، تضمّن هذا الحديث النبوي استعارة تصريحية، فصرح بالمشبه به وهو (القوارير)، وحذف المشبه وهو (النساء)، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقصد بالقوارير النساء، وهذا حسب ما جاء في كلام شراح الحديث، وتضمّن الحديث هذه الاستعارة التي تحمل الكثير من الدلالات، فالقوارير جمع قارورة وهي الزجاجية، وكما نعلم بأنّ الزجاج معروف بقابليته للكسر، لذا يجب على حامله أن يكون حذرا، فاستعارة القوارير للنساء تحمل دلالة الضعف والرقّة معا، حيث يكون جمال المرأة في ضعفها ورقتها، واستعمال الاستعارة في هذا الحديث دليل على بلاغته صلى الله عليه وسلم، فلو استبدل كلمة قوارير بكلمة نساء لما كان لها معنى مؤثر على المتلقي، وهذا التعبير يجعل أنجشة يكف عن السرعة، كما أوجزت هذه الاستعارة كلاما طويلا، وقد يتجلى في هذا الحديث مدى أدب النبي صلى الله عليه وسلم، ورفقه ومدى أخلاقه، فلم ينهر ويتوعد أنجشة بل خطابه باسمه تكريما، ولينا وهذا يجعل المتلقي أحرص على الاستجابة.

¹ - الصباغ محمد، الحديث النبوي مصطلحه، بلاغته كتبه، ص 73.

² - رواه أنس بن مالك في صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب المعارض مندوحة عن الكذب، رقم الحديث: 6211.

ومن تجليات استخدام هذه الصورة البيانية أيضا في الحديث النبوي، ما جاء في إيضاح معالم الدين، وتقريرها وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمد رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحجّ، وصوم رمضان"¹، قال بدر الدين العيني في كتاب عمدة القارئ شرح صحيح البخاري: "وفيه الاستعارة بالكناية لأنّه شبه الإسلام بمبنى له دعائم، فذكر المشبّه، وطوى المشبّه به، وذكر ما هو من خواص المشبّه به، وهو البناء، و يسمى هذا استعارة ترشيفية، ويجوز أن يكون استعارة تمثيلية، بأنّ تمثّل حال الإسلام مع أركانه الخمسة بحالة خباء أقيمت على خمسة أعمدة، وقطبها التي تدور عليه الأركان هو: شهادة أن لا إله إلا الله، وبقيت شعب الإيمان، كالأوتاد للخباء، ويجوز أن تكون الاستعارة تبعية بأن تقدّر الاستعارة في بُنيّ، والقرينة الإسلام شبّه ثبات الإسلام، واستقامته على هذه الأركان ببناء الخباء على الأعمدة الخمسة، ثمّ تسري الاستعارة من المصدر إلى الفعل، وقد علمت أن الاستعارة التبعية تقع أولا في المصادر، ومتعلقات معاني الحروف، ثم تسري في الأفعال، والصفات، والحروف، والأظهر أن تكون استعارة مكنية بأن تكون الاستعارة في الإسلام، والقرينة بُنيّ على التخيل، بأن شبه الإسلام بالبيت، ثم خيل كأنه بيت على المبالغة، ثم أطلق الإسلام على ذلك المخيل، ثم خيل له ما يلزم البيت المشبه من البناء، ثم أثبت له ما هو لازم البيت من البناء على الاستعارة التخيلية، ثم نسب إليه ليكون قرينة مانعة من إرادة الحقيقة"²، فهنا بيّن العيني الصورة البيانية التي تضمنها الحديث وهي: استعارة مكنية، حيث شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام بمبنى له دعائمه، فصرح بالمشبه وهو الإسلام، وأضمر المشبه به وهو المبنى، وأتى بخاصية من خواص المشبه به ولوازمه وهي البناء.

التصوير بالكناية في الحديث النبوي:

1 - البخاري، كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم، رقم 8.

2 - العيني بدر الدين، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ج1، ص125.

الكناية عن الشيء أبلغ من الإفصاح عنه، والكناية لها دور في تحسين وتلطيف الكلام، ويكمن دورها في تأكيد الشيء وإثباته، والكناية في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم مؤكّد، فهي ألزم وأبلغ لأنّ لها ضرورة تقتضيها، وهي التعبير عن أمور الدين، وأفكاره بطريقة جمالية مهذبة، حسب ما يقتضيه المقام ويستدعيه، فهي خاصة من من خصائص الخطاب النبوي من أجل التأكيد، والإثبات للمقاصد المراد تقريرها من أمور الدين، ومن تجليات الكناية في خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، قوله: "بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا بيهتان، تفترونه بين أيديكم، وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، من أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله: إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه"¹.

فقد تضمن الحديث كناية وذلك في قوله: (لا تأتوا بيهتان، تفترونه بين أيديكم، وأرجلكم)، فاليد والرجل كنايةتان عن النفس والذات فالبيهتان يأتي من قبل النفس، فجاء في كتاب عمدة القارئ شرح صحيح البخاري: "ومنها ما قيل فما معنى إضافته إلى الأيدي والأرجل، وأجيب بأنّ معناه ولا تأتوا بيهتان من قبل أنفسكم، واليد والرجل كنايةتان عن الذات لأنّ معظم الأفعال تقع بهما، وقد يعاقب الرجل بجناية قوليه، فيقال له هذا بما كسبت يداك، ولا تغشوه من ضمائرهم، لأنّ المفترى إذا أراد اختلاق قول، فأنه يقدره، ويقرّره أولاً في ضميره، ومنشأ ذلك ما بين الأيدي والأرجل من الإنسان، وهو القلب فالأول كناية عن لقاء البهتان من تلقاء أنفسهم، والثاني عن إنشاء البهتان من دخيله"²، فهنا يوضح الصورة البيانية التي تضمنها حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن النفس بالأيدي والأرجل، ألا وهي الكناية التصوير بالتشبيه :

¹ - البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، رقم الحديث: 18.

² - العيني بدر الدين، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، ج 1، ص 159.

فحديثه صلى الله عليه وسلم غني بالتشبيه، وقد استعملت هذه الصورة الفنية بشتى أنواعها، من تشبيه بليغ وتمثيلي، وبذكر الأداة، ودون ذكرها، وهناك الكثير من الأحاديث التي تضمنت التشبيه، " أما الأمثلة على التشبيه فما أكثرها، وما أكثر ما نجد في الحديث من تشبيهات خالدة رائعة منها، في موضوع تأثر مجموع الأمة بأفعال بعض الأفراد، وضرورة وضع حد لحرية الفرد، حتى لا يسيء إلى الآخرين ووجوب التناصح والتأمر بالمعروف والنتاهي عن المنكر وردع الآثمين المجرمين، والأخذ على أيديهم"¹، ويتجلى هذا في قوله صلى الله عليه وسلم: "مثل القائم في حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم، استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها. وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا"².

فالتشبيه في هذا الحديث ساهم في زيادة جمال وتقوية المعنى، وبالتالي فله تأثير كبير على نفسية المتلقين فيحفظون حدود الله.

ومن تجليات التشبيه في الحديث النبوي أيضا: عندما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن معادن الناس فقال: "الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا"³. في الحديث شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالمعادن، فذكر المشبه وهو الناس، والمشبه به وهو المعادن أما أداة التشبيه والصفة المشتركة بينهما لم يذكرها وبالتالي فهو تشبيه بليغ.

إن ألوان الذهب والفضة تختلف، وهو كذلك بالنسبة للناس فإن طبائعهم تختلف، باختلاف عقائدهم ونسبهم وغيرها من الاختلافات، فالناس كالمعادن بعضهم نادر ونفيس كالذهب والفضة، وبعضهم كالصفيح، فإذا كان الإنسان معدنه كالذهب، فإن ذلك يعني أنه

¹ الصباغ محمد، الحديث النبوي، ص 76.

² رواه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، باب: هل يقرع في القسمة؟ والاستهام فيه، رقم الحديث: 2493.

³ صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: "لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين"، رقم الحديث: 3383.

طاهر ونقي النفس والروح، وأن أخلاقه راقية كالذهب، أما إذا كان معدنه كالصفيح، فذلك يعني أن أخلاقه قد هبطت وتدنت حتى علاها الصدا، وفي هذا الشأن يقول الشريف الرضي في كتابه المجازات النبوية: "إنه عليه الصلاة والسلام شبه الناس بالمعادن التي تكون في قرارات الأرض، فلا يحكم على ظواهرها حتى يستخرج دوائنها، ويستتبط كوامنها، فيكون منها اللجين والنضار، ويكون منها النفط والقار، فكذلك الناس لا يجب أن يحكم على مجالهم، ولا يقطع على بواديهم حتى يخبروا، ويعرفوا، ويثاروا، ويجثوا، فيخرج البحث جواهره، ويمحص الامتحان مخابره، ليتبين حينئذ ... وطيب الغرائز، وتكشف منهم طرائق، ولئيم الخلائق"¹، بما أن الناس كالمعادن فلا يجب الحكم عليهم من خلال المظاهر، وإنما من خلال أقوالهم وسلوكاتهم، فيتبين طيبهم من سيئهم، فالمقياس الحقيقي للتفاضل بين الناس نابع من قيمة المعدن، أي من نفس الإنسان وقيمه وأخلاقه، فمعادن الناس تختلف حسب تربيتهم وأخلاقهم، لا حسب لونهم وجنسهم. فهذه النماذج التي أوردناها تبين جلاء استخدام الحديث النبوي للصورة التشبيهية بكل أنواعها، من تشبيه تمثيلي وبلغ، وبذكر الأداة، ودون ذكرها، كما أنها تدلّ على مدى عنايته صلى الله عليه وسلم بهذه الصورة الفنية في تقريب المعاني وإيضاح أمور الدين.

❖ الحوار في الحديث النبوي :

خاصية الحوار شائعة في الحديث النبوي الشريف، لأنه صلى الله عليه وسلم في حديثه للناس يعلمهم، يجيب عن تساؤلاتهم، ويصحح أخطائهم ويلين دعواتهم فهو صلى الله عليه وسلم مربيًا ومعلمًا لكافة الخلق.

وللحوار أهمية كبيرة في أي خطاب كان فهو: "محبب للنفس، يضفي الحيوية على النص الأدبي الجميل، ويدفع الملل والشروء، ويشد انتباه السامع، ويجعل الإقبال على متابعة النص أشد، والذهن أكثر تفتحًا وتجاوبًا"²، لذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يفضل

¹ . الرضي الشريف، المجازات النبوية، تح: مروان العطية ومحمد رضوان الدالية، د ط، 1987، ص 127.

² . الصباغ محمد، الحديث النبوي مصطلحه، بلاغته، كتبه، ص 96.

الحوار مع غيره حتى يحبب حديثه إلى الناس، ويشد انتباههم، وبالتالي يؤثر عليهم، وبهذا الأسلوب استطاع صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الرسالة التي بعث بها، وحتى يكون الحوار جيداً فيجب أن يحتوي على صفتي التركيز، والإيجاز "وذكروا في وصف الحوار الجيد أنه يجب أن يحتوي على صفتين أساسيتين: التركيز والإيجاز، وقرروا أن الطول في العبارة الحوارية يُميت الحيوية"¹.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخذ صفة الحوار كأداة تعليمية يلجأ إليها ليحرك أذهان صحابته في الموضوع الذي يريد أن يتحدث فيه، حتى وعند محاورته لشخص ما، يصغي إليه وعندما ينتهي من حديثه، ينظر ويستخلص إذا وفَّق حوارَه، وحديثه، أي ما إذا كان الشخص الذي يحاوره قد فهم قصده صلى الله عليه وسلم أم لا.

وقد اعتمد الرسول صلى الله عليه وسلم عدة طرق في حواراته، "وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم طرق في إثارة الحوار فمن هذه الطرق"² :

1 . أن يأتي بجملة تبدوا غريبة من أول وهلة ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، أ رأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصر" رواه البخاري

2 . أن يكون السؤال الذي يطرحه مشوقاً يرغبهم في أن يعرفوا الجواب: و يتجلى ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: " إسباغ الوضوء على المكاره وكثر الخطا إلى المسجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذل لكم الرباط " رواه مسلم.

3 . ومن الطرق أن يوجه صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه سؤالاً، ويستمع إلى أجوبتهم ثم يناقشهم في هذه الأجوبة، ويبين لهم الصواب، ومن ذلك حديث جبريل عليه السلام حيث

¹ . المرجع نفسه، ص 97.

² - ينظر: المرجع السابق، ص 97 - 103.

سأل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد انطلاقه: " أتدري من السائل يا عمر؟ " قال عمر: قلت: الله ورسوله أعلم، قال صلى الله عليه وسلم: فاتّه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم " رواه مسلم.

4 . هناك حوار نجده في الحديث ليس مما تقدم بل حوار لم يتعمده الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنها الوقائع أملتها، ومن ذلك أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الإسلام خير؟ فقال صلى الله عليه وسلم: " تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف " متفق عليه.

وهناك أحاديث صيغت على شكل قصص قصيرة قصها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين للعبارة، والعضة، والدعوة فمن ذلك حديث الأعمى والأقرع والأبرص والراهب العالم وغيرها من القصص، ومن أبرز تجليات الحوار في الحديث النبوي، حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع جبريل عليه السلام. والحوارات في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم هي من أدب وأخلاق النبي الكريم، فهي تجسد أخلاقه، وقيمه وبذلك تكون تعليمية للناس كافة، فمن أدابه صلى الله عليه وسلم ووقاره واحترامه، فكل صفات الأخلاق اجتمعت فيه.

❖ موسيقى الحديث:

فقد تميز خطابه صلى الله عليه وسلم بموسيقاه، "إنّ موسيقى الحديث حلوة رائعة عذبة تنساب في الكلمة الحديثية، وفي الجملة الحديثية، كما تنساب في الكلام وهي تنطلق من حروف الكلمة، ومن الكلمات مجتمعه، فالرسول صلى الله عليه وسلم، قدرة كبيرة على اختيار الكلمات ذوات الإيقاع الموسيقي المحبب، بحيث يتوافر لكل الكلمة منها أمران إثنان لها أهمية كبرى هي إعطاء الكلمة موسيقاها الحلوة هما: التعاطف بين المعنى واللفظ، والإنسجام في إيقاع الحروف وهو ما يضيف على الكلمة موسيقى معينة، حتى أصبحت هذه الموسيقى تخدم المعنى وتقود إليه وتدل عليه. ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (إنّ الله

يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) رواه الترميذي، فموسيقى كلمة يغرغر ساعدت على تصوير المعنى وتقريبه بشكل تمثيلي¹.

ومن بين ما يعطي للجملة لحنًا وموسيقى جميلة كل من: الموسيقى الداخلية للألفاظ والجمال، الموازنة والتقابل، والسجع، والجناس وغيره وقد امتاز أدبه صلى الله عليه وسلم بموسيقاه الصافية مثل التي يحدثها السجع الجميل في قوله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا عُمَيْرٍ ما فعل النُّعَيْرُ"² ففي هذا الحديث سجع وذلك في عبارتي النُّعَيْرِ وعمير، وسجعه صلى الله عليه وسلم ليس كسجع الشعراء وغيرهم، فالنبي عليه الصلاة والسلام ليس بشاعر، وكلامه ليس بشعر، فهو صلى الله عليه وسلم بعث برسالة الحق والهدى.

ومن الخصائص البلاغية في الحديث النبوي نجد أيضا:

❖ التوكيد بنوعيه: اللفظي والمعنوي:

فقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم للتبليغ، والتعليم في مجتمع كانت تسوده الأمية والجهل، فكان لابد من تأكيد قوله، من أجل تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، ومن أمثلة التوكيد في الحديث النبوي قوله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ"³، نوع التوكيد في هذا الحديث، توكيد لفظي، والتوكيد هنا كان بالحرف (إنّ) حيث أكد النبي صلى الله عليه وسلم، على وجوب النية في الأعمال.

أسلوب الشرط: فقد كثر استخدام أسلوب الشرط في الحديث النبوي، ومن ذلك حديثه صلى الله عليه وسلم: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"⁴، يتضح من هذا الحديث بأن محبة الإنسان لأخيه، شرط من شروط الإيمان.

1 - ينظر: الصباغ محمد، الحديث النبوي، ص91.

2 - البخاري، كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس، 6129.

3 - البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث 1.

4 - البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم الحديث 13.

التكرار: ويقصد بالتكرار أن يكرر المتكلم اللفظة للتأكيد، ويعمل التكرار على إعطاء حيوية للإيقاع، وقد شاع التكرار في الحديث النبوي بأنواعه: (تكرار الحرف، تكرار الكلمات، تكرار الجمل)، ومن أمثلة ذلك حديثه صلى الله عليه وسلم: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ: وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ: وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ" ¹، هنا تكررت عبارة من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ثلاث مرات، لغرض التأكيد والتوجيه، والغرض الأساسي من هذا التكرار تبيين بعض تعاليم الدين الإسلامي، كحق الجار على جاره، وغيرها من التعاليم.

وهناك الكثير من الخصائص: كالحذف، والقسم، والتقديم والتأخير وغير ذلك، والتي لا يتسع هذا البحث لكي نفي بها، أو للتفصيل فيها.

وهذه الخصائص البلاغية التي تجسدت في حديثه صلى الله عليه وسلم، وبالأحرى تلك الخصائص التي تميز بها أسلوبه، والتي تعطي للنص قيمته الفنية والجمالية، وهي التي تبين خصوصية الفصاحة والبيان التي أوتيها صلى الله عليه وسلم، وما كان من سلاسة ألفاظه، وبراعة تصويره مع الغاية في إيجاز اللفظ، ووضوح المعنى، فقد وصف **مصطفى صادق الرافعي** بلاغته صلى الله عليه وسلم قائلاً: "هذه هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآياتها، وحسرت العقول دون غايتها، لم تصنع وهي من الأحكام كأنها مصنوع، ولم يتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة، ألفاظ النبوة يغمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله، محكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفصول، حتى ليس فيها كلمة مفصولة، وكأنما هي في اختصارها وإفادتها بنص قلب يتكلم، وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من خواطره صلى الله عليه وسلم" ².

¹ - البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم الحديث 6018.

² - الرافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 279.

فبلاغته صلى الله عليه وسلم أفحمت بلغاء العرب وشعرائها، فلم يستطع أحد من فحولها أن يأتي بمثله، فهو لا ينطق إلا عن ميراث حكمة. فصلى الله وسلم تسليمًا، على من أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام، وكان أفصح العرب، وأحسنهم وأبلغهم قولًا.

2. خصائص عامة للخطاب النبوي

ومن الخصائص العامة التي تميز بها الخطاب النبوي مايلي:

❖ عالمية هذا الخطاب:

إن الخطاب النبوي عالمي، فهو يستوعب حياة الناس جميعًا، وحينما شرع الله هذه الشريعة جعلها للناس كافة في كل الأرض، وفي كل زمان إلى يوم الدين، لأنه خطاب قادر على استيعاب خصوصيات الناس، وسائر أنماط حياتهم الإجتماعية والأخلاقية وغير ذلك.

❖ يخاطب العامة والخاصة:

إن الخطاب النبوي مثله مثل الخطاب القرآني، فهو خطاب للإنسان في جميع مستوياته، عالم أو جاهل، ذكي أو غبي، فالجميع يشعر بحلاوة هذا الخطاب، ويتأثر به، ويتفاعل معه، لأنه أدركه على حقيقته فاستجاب لأوامره، "قلو أنك خاطبت الأذكياء، بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت العامة باللحمة، والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجنتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء، والجهلاء، وإلى الأذكياء، والأغبياء، وإلى السوق، والملوك فيراها كلّ منهم مقدرًا على مقياس عقله وعلى وفق حاجته"¹.

❖ إنه خطاب معجز:

إن الخطاب النبوي معجز، فهو ليس كأبي خطاب بشري، لأنه مطلق يستوعب الإنسان، والمجتمع، والواقع، ويتجاوزه بما يحمل من قدرات الخطاب المهيأ لمواكبة أيّ واقع مهما

¹ - الدرّاز عبد الله، النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، ط6، 1984، ص113.

كانت المتغيرات، وهذا الخطاب الرباني المتمثل في السنة النبوية قادر على التفاعل في أي مجتمع كان، ولما كانت السنة النبوية وحيا من عند الله فأنه كان إلزاما أن يكون فيها ما كان في القرآن من قوة البلاغة، والفصاحة حتى يصل بها التحدي، والإعجاز، وقد أوتى صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم، وحسن القول، وقوة الإقناع، و براعة التفنن في اختيار الأساليب، " فهذا الخطاب الرباني المتمثل في القرآن والسنة النبوية قادر على التفاعل، والعمل في أي مجتمع سواء كان متخلفا من الجانب المادي، كالمجتمعات الإفريقية التي تعاني من الفقر المدقع، فهو يدعو الناس إلى الستر والأخلاق الحميدة، والعدالة، والمساواة والعمل، والبناء سعدا للوصول إلى القمة السامقة التي يهدف إلى الوصول إليها، كما أنه يعمل في أكثر المجتمعات تقدما في الجانب المادي كمجتمع السويد وغيره، ويبدأ من النقطة التي وصلوا إليها ويصعد بهم في عالم القيم، والأخلاق، والمثل العليا مع علاج الأمراض، التي تؤدي إلى انحطاط المجتمع، وانتكاسه في حماة الرذيلة والفساد"¹.

❖ مخاطبة العقل:

كان النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته إلى التوحيد، ورفض الشرك، والتخلي عن عبادة الآلهة يخاطب العقول لا القلوب، فخطابه صلى الله عليه وسلم لا يستند إلى منطق العاطفة، في دعوته إلى الإسلام، وترك الكفر، وإنما يستند إلى منطق العقل، فالخطاب النبوي يمتاز "بخلوه من الحشو، ومن الصور الخطابية العاطفية، التي تعتمد على العاطفة وحدها دون العقل ... وأنه يتجلى في أسلوب الحديث النبوي العقل الناطق بأبلغ وأوجز تعبير معتاد"²، فالنبي صلى الله عليه وسلم يخاطب العقل بأوجز العبارات بحثا عن الإقناع والتأثير.

❖ مراعاة المخاطبين:

¹ - ينظر: البوشيخي الشاهد، القرآن الكريم روح الأمة، منشورات المحجبة، ط4، 2010، ص 113.

² - الزرقاء مصطفى، مقارنة بين أسلوب الحديث وأسلوب القرآن، مجلة الأدب الإسلامي، العدد7، السنة الثانية، مطابع مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1995، ص 63.

كان النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يراعي أحوال مخاطبيه، فإنَّ خطابه يختلف باختلاف المخاطبين، وأحوالهم النفسية، والاجتماعية، وكذلك باختلاف شعوبهم، وقبائلهم، وطرق تفكيرهم، كلٌّ يخاطبه حسب عقله، وعلمه، ودينه، وجنسه وغير ذلك، أي كلٌّ وما يناسبه. فعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: "حدثوا النَّاسَ بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله"¹.

فقد كان النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يراعي سن مخاطبيه، وديانتهم، وجنس المخاطب هل رجل أو امرأة؟، كما أنَّه كان يراعي منزلة المخاطبين، فخطابه للملوك يختلف عن خطابه للأشخاص العاديين، بالإضافة إلى أنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يراعي المناسبة، والظروف التي يقال فيها الخطاب فمثلا خطابه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في يوم حنين يختلف عن خطابه يوم بدر، وحجة الوداع وغيرها من الخطابات.

فخصائص الخطاب النبوي متشعبة وكثيرة، فلم يسعنا ذكرها كلها، وهذه الخصائص التي ذكرناها تبين جلاء بلاغته، وتؤكد أنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُوتِيَ جوامع الكلم، فكان خطابه في منتهى الفصاحة.

¹ - البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوم دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم 127.

الفصل الثالث:

أدب الخطاب وتجلياته في الحديث
النَّبوي

بعث النبي صلى الله عليه وسلم مربيا، ومعلما للبشرية جمعاء، وأتصف بحسن الخلق وكمال الأدب، فالخطاب النبوي غني بالآداب والقيم الخلقية، والاجتماعية، ويهتم ببيان شؤون الناس في مجتمعاتهم، ويرسم طبيعة العلاقات بين أفراد المجتمع الإسلامي ليصل بهم إلى حالة من الأمن، والسلام، والبناء الحضاري، خاصة من خلال زرع هذه القيم، والأخلاق الفاضلة، والمثل العليا في المجتمع الإسلامي المعاصر، وبما أنّ التخاطب وسيلة ضرورية يعتمد عليها الإنسان، للتعبير عن حاجياته، ومقاصده، وكذلك للتواصل مع أبناء جنسه، لذلك كان لزاما عليه أن يتعلم أدب الخطاب، وفنونه حتى يستطيع الوصول إلى قلوب الناس، ويكتسب الود، والإحترام، مراعيًا الكلمات التي يتلفظ بها، فالكلمة من أقوى وسائل التواصل، وذلك لما لها من أثر كبير على النفوس، وبين النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديثه، الآداب التي ينبغي على المخاطب أن يلتزم بها، ليكون خطابه نافعا غير ضار، مقربا غير منفر، فالحديث النبوي ينبوع هذا الأدب بعد النص القرآني، فهو من أهم مصادر تعلم أدب الخطاب، لما فيه من آداب التخاطب، الذي يحقق المحبة، والمودة، والترابط بين أفراد المجتمع الإسلامي.

وسنحاول في هذا الفصل والمعنون ب: أدب الخطاب وتجلياته في الحديث النبوي، الكشف عن الآداب التي يجب أن يراعيها المخاطب حتى يكون خطابه راقيا، ويكون ذا وقع في نفوس المخاطبين، ويستطيع تحقيق الأهداف المرجوة من خطابه، ويمكن تحديد هذه الآداب كالآتي:

1- لين الكلام وانتقاء الكلمات والجمل الحسنة، واجتناب الكلام الفظ الغليظ، والكلمات السيئة عند مخاطبة الناس.

فمن أدب الخطاب أن يحسن المتكلم اختيار كلماته، وألفاظه، وبالتالي الابتعاد عن الكلام الفظ الغليظ، الذي ينفّر النفوس، وقد دعى النبي صلى الله عليه وسلم، إلى العناية بحسن

انتقاء الكلمة، وذلك لما لها من مساهمة فاعلة في نشر المودة والتآخي بين أفراد المجتمع، كما حذر صلى الله عليه وسلم من الفحش في القول، ومن أذى المسلمين باللسان، ومن العبارات الفاحشة والمؤذية التي تخذش الحياء، وتؤذي الناس، وتعكر المزاج، ومن الكلمات التي نهى الله سبحانه وتعالى، ونبيّه الكريم عنها: هي كلمات الكذب، والافتراء، السب، الشتم، والقذف، واللعن، والسخرية من الآخرين، والتكلف، الغيبة، والنميمة، كما يجب المخاطب أن يتجنب العبارات التي تحتمل الصواب والخطأ، وتحتمل الحق والباطل، الابتعاد عن الألفاظ الأعجمية وغير ذلك، قال ابن القيم: " والأقوال التي ذمها الله في كتابه أكثر من أن تعد كالقول الخبيث، والقول الباطل، والقول عليه بما لا يعلم القائل، والكذب، والافتراء، والغيبة، والتنازع بالألقاب، والتناجي بالإثم والعدوان، ومعصية الرسول، وتبويت ما لا يرضي من القول، وقول العبد بلسانه ما ليس في قلبه، وقوله ما لا يفعله، وقول اللغو، وقول ما لم ينزل الله به سلطانا، والقول المتضمن للشفاعة السيئة، والقول المتضمن للمعاونة على الإثم والعدوان، وأمثال ذلك من الأقوال المسخوطة، والمبغوضة للربّ تعالى، التي كلها قبيحة لا حسن فيها، ولا أحسن" ¹، وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الأقوال أو الكلمات لما لها من أثر سلبي على نفوس المتقين، كما أنّها تنفر القلوب، وتحفز السامع للانتقام، والرد، فيحاول أن يردّ على مخاطبه بكلام آخر أكثر غلظة وقسوة.

وكان حديث النبي صلى الله عليه وسلم، يخلو من الألفاظ السيئة، والفاحشة لأنّه كان يختار في خطابه أحسن الألفاظ، وألطفها، كما أنّها كان يختارها لأمته، قال ابن القيم في كتابه زاد المعاد: " كان يتخير في خطابه، ويختار لأمته أحسن الألفاظ، وأجملها، وألطفها،

¹ ابن القيم، الكلام على مسألة السماع، تح: محمد عزيز شمس، دار علم الفوائد، دت، د ط، ص 20.

وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش¹، وهذا من أبرز مظاهر عظمته ونبوته صلى الله عليه و سلم.

كما أمر الله سبحانه وتعالى، بقول الكلام الطيب، والابتعاد عن الكلام الفاحش، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة/83].

وقوله أيضا : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء/53].

وقد أولى النبي صلى الله عليه وسلم عناية كبيرة بالكلمة، أو اللفظة، لما فيها من الأثر الكبير في القلوب، ولأنّ الكلمة من أعظم نعم الله سبحانه وتعالى على عباده، فهي من أقوى وسائل التواصل بين بني البشر، والعناية بها، وبحسن انتقائها تزيد من جمال الخطاب، وتزيد من حظوظ المتكلم من تحقيق أهدافه، واستثارة السامع، أما عدم العناية بحسن انتقاءها قد يؤدي إلى تفشي الكلمات الفاحشة في الخطاب، وهذا ما يزيد من البعد، والكرهية وغير ذلك، والكلمة هي صورة الشخص لما لها من أهمية، وأثر على نفوس المتلقين، فرب كلمة زادت القريب قربا، ورب الكلمة زادت البعيد بعيدا، ورب كلمة فرقّت جمعا، ورب كلمة أوقدت عزيمة في النفس، ورب كلمة خذلت نفسا منبعثه للطاعة، فالكلمة الحسنة تزيد الأليف ألفة، والقريب قربا، أما الكلمة السيئة فأنّها تنفر القلوب، وتزيد من العداوة، والبغضاء بين النفوس، وقد توقد نار الفتنة بين الشعوب، وبين أفراد المجتمع الواحد، ورب الكلمة أدخلت صاحبها الجنة، ورب كلمة هوت بصاحبها في النار.

¹ . ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدى خير العباد، ت شعيب الأرنؤوط ، وعبد القادر الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، لبنان، ط4، 1986، ج 2، ص 352.

قال رسول الله صلى الله عليه: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يَلْقَى لَهَا بِالَا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يَلْقَى لَهَا بِالَا، يَهْوَى بِهَا إِلَى جَهَنَّمَ"¹

ولأجل هذا فقد اعتنت السنة النبوية ببيان الآداب التي ينبغي أن يلتزمها المتكلم، لتكون كلماته نافعة، جالبة له الأجر، ودافعة عنه الإثم، ومن تجليات هذا في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ما يأتي:

1. قوله صلى الله عليه وسلم: " والكلمة الطيبة صدقة "²، هذا جزء من حديث طويل.

2. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لا طيرة وخيرها الفأل. قيل يا رسول الله وما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة يسمعا أحدكم "³.

3. عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " اتقوا النار ولو بشق تمر، فان لم يكن فبكلمة طيبة "⁴.

4. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت " ⁵.

والأحاديث المذكورة سابقا وردت حول لين الكلام وحسن إنتقاء الألفاظ، وكذلك تدل على أهمية الكلمة في الخطاب، أما الأحاديث التي وردت في شأن اجتناب الكلام الفظ، والألفاظ السيئة فكثيرة منها:

1 - البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت، رقم الحديث: 647.

2 - البخاري، كتاب الجهاد، باب فضل من حمل متاع صاحبه في السفر، رقم الحديث: 6891.

3 - البخاري كتاب الطب، باب الفأل، رقم الحديث: 5755، و باب الطيرة، رقم الحديث: 5754.

4 - البخاري، كتاب الأدب، باب طيب الكلام، رقم الحديث: 6023.

5 - البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ الكلام، رقم 6475

- 1 . "عن مسروق قال: دخلنا على عبد الله بن عمرو حين قدم مع معاوية إلى الكوفة، فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لم يكن فاحشا ولا متفحشا . وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من خيركم أحسنكم كلاما " 1.
- 2 . عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: " فلم يكن النبي صلى الله عليه و سلم سبابا ولا فاحشا ولا لعانا كان يقول لأحدنا عند المعتبة : ما له ترب جبينه" 2.
- 3 . عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قال الرجل: هلك الناس، فهو أهلكهم" 3.
- 4 . عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله عليه سلم: " أيما إمرئ قال لأخيه بكافر فقد بها أحدهما إذا كان كما قال وإلا رجعت عليه " 4.
- 5 . عن مسروق قال: قالت عائشة رضي الله عنها: " صنع النبي صلى الله عليه و سلم شيئا، فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فخطب فحمد الله ثم قال: ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدّهم له خشية" 5.
- 6 . عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " سبابُ المسلم فسوق، وقتاله كفر" 6.

1 - البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا، رقم الحديث: 6029.

2 - البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا، رقم الحديث : 6031

3 - ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر : تح: محمود محمد الطناحي، المكتبة الإسلامية، د ط، د ت، ص 269، ج 5.

4 - البخاري، كتاب الأدب، باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، رقم الحديث: 6104.

5 - البخاري، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، رقم الحديث: 6101.

6 . البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهي من السباب واللعن، رقم الحديث: 6044.

7 . عن أبي هريرة رضى الله عنه، سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَّبِعُ فِيهَا، يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَعْبَدُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ"¹.

8 . عن عائشة رضى الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لَا يَقُولُنَّ أَحَدُكُمْ: خَبِثَتْ نَفْسِي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ لِقِسْتِ نَفْسِي"².

من خلال الأحاديث التي ذكرناها يلحظ بأن النبي صلى الله عليه وسلم أولى عناية كبيرة، بتربية أمته على اختيار الألفاظ الحسنة والطيبة، واجتناب الألفاظ القبيحة، والسيئة، لأن الأصل في الكلام ومخاطبة الناس يكون بكلام جميل، لطيف، وليس بالكلام الفظ الغليظ، وذلك لما للكلمة الطيبة من الأثر الكبير في نشر المحبة، والأخوة، والرحمة في المجتمع، وما للكلمة السيئة من أثر سلبي على نفوس المتلقين، وأفراد المجتمع، "﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء/53]، على وجه الإطلاق، وفي كل مجال فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه: بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة فالشيطان ينزع بين الإخوة بالكلمة الخسنة تقلت، وبالرد السيئ يتلوها، فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء، والكلمة الطيبة تأسوا جراح القلوب، تندي جفافها، وتجمعها على الود الكريم، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِإِنْسَانٍ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء/53]، يتلمس سقطات فمه، وعثرات لسانه، فيغري بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه، والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات وتقطع عليه الطريق، وتحفظ حرم الأخوة آمنة من نزعاته و نفاثته"³.

كما نلاحظ عناية الإسلام بضبط لسان المسلم، وذلك بدعوته إلى أن يعود لسانه على الكلام الحسن كي يكون عادة له وميزة ، لأن الناس ينفرون من الشخص سليلط اللسان، أو الفظ الغليظ، أو المتعصب، وكلما كان المرء لئيب الكلام بعيدا عن الجدال، و ينتقي العبارات

1 - البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم الحديث: 6477.

2 . البخاري، كتاب الأدب، باب لا يقل خبثت نفسي، رقم الحديث: 6179.

3 . سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط 10، 1981، ج4، 2234.

والألفاظ اللطيفة، والأجوبة الملائمة ويقابل الإساءة بالإحسان، كلما كان محبوباً مقبولاً لدى الآخرين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران/159]، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه"¹.

كما نلاحظ خطورة رمي الناس بما ليس فيهم وترتيب الوعيد الشديد على ذلك، وهذا ما لمسناه في الحديث رقم 6104 في صحيح البخاري.

فقد تنوعت وتعددت النصوص، والأحاديث المؤكدة على عناية النبي صلى الله عليه وسلم بحسن الكلمة، والذي ذكرناه هو جانب من جوانب عناية الرسول صلى الله عليه وسلم بشأن الخطاب، وهو الاعتناء بحسن انتقاء الكلام الجميل اللطيف، والابتعاد عن الكلام الفظ القبيح.

2 . بدئ الخطاب بالسلام:

من أدب الخطاب أن يبدأ المتكلم كلامه بالسلام، لأنّ السلام هي تحية الإسلام، وقد أولى النبي الكريم عناية خاصة بموضوع السلام، وهذا واضح من خلال أحاديثه، وخطاباته صلى الله عليه وسلم، فمن الأحاديث الواردة في هذا الشأن ما يلي:

1 . عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لما خلق الله تعالى آدم صلى الله عليه وسلم قال: اذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك، فانها تحيتك وتحية ذريتك، فقال السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك

¹ - البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم الحديث: 10.

ورحمة الله فزادوه ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن¹.

2 . عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " يسلم الصغير على الكبير، والمار على القاعد، والقليل على الكثير"².

3 . عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: "أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع: بعبادة المريض، واتباع الجنائز، و تشميت العاطس، ونصر الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار المقسم، ونهى عن الشرب في الفضة، نهى عن تختم الذهب، وعن ركوب المياثر، وعن لبس الحرير والديباج، والقسيّ والاستبرق"³.

4 . عن أبي أيوب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام"⁴.

5 . عن عبد الله بن عمرو "أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام خير؟ قال: (تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت وعلى من لا تعرف)⁵.

ومن الأحاديث المذكورة نستنتج أنه: من أدب الكلام أو التخابط بين الناس البدء بالسلام، وذلك لأنّ السلام أول تحية سلم بها آدم على الملائكة، فحيّوه بها، وزادوه ورحمة الله، فجعلها الله تعالى تحية لآدم عليه السلام ولذريته، والسلام من محاسن الإسلام، فالمسلم عندما يقول لأخيه المسلم (السلام عليكم) فهو يدعوا له بالسلامة من كل شر، وعندما يقول

1 - البخاري، كتاب الاستئذان، باب بدء السلام، رقم الحديث : 6227.

2 - البخاري، كتاب الإستئذان، باب يسلم ، الصغير على الكبير، رقم الحديث: 6234.

3 - البخاري، كتاب الإستئذان، باب إفشاء السلام ، رقم الحديث: 6235.

4 - البخاري، كتاب الإستئذان، باب السلام للمعرفة وغير المعرفة، رقم الحديث: 6236.

5 - البخاري، كتاب الإيمان، باب إفشاء السلام من الإسلام، رقم الحديث: 28.

له: السلام عليكم ورحمة الله فهو يدعو له بالسلامة والرحمة، وعندما يضيف وبركاته، فمعناه أنه يدعو له بالسلامة من كل شر، وبالرحمة، والبركة.

والمسلم عندما يحي أخاه، تزيد بينهما المحبة والمودة، وتتشأ بينهما الصداقة والأخوة، وتزِيل البعد والقطيعة بينهما.

وإفشاء السلام من شيم المسلم، فتحية الإسلام تدل على تواضعه وحسن تعامله، وخلقه، كما أنها من موجبات دخول الجنة، لذلك فإنها أولى من التحيات الأخرى، التي يتعامل بها المسلمون مع الآخرين في إلقاء التحية مثل: صباح الخير، مساء الخير، أهلاً وسهلاً، مرحباً، وغيرها من التحيات، زيادة على التحية باللغات الأجنبية bonjour بالفرنسية، وهذه التحية من أشهر التحيات المتفشية في مجتمعنا العربي عامة، والجزائري خاصة، بالإضافة إلى تحية good morning بالإنجليزية، فعلى المسلم أن يبدأ بتحية الإسلام ألا وهي السلام، لا بتحية غير المسلمين.

3 . مراعاة أحوال وظروف المخاطبين:

فمن فصاحة، وبلاغة المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومن أدبه في الخطاب أنه كان يخاطب الناس كل حسب بيئته، وديانته، وعقيدته، وطبعه، فخطاباته تختلف باختلاف أحوال المخاطبين، وظروفهم، وتختلف باختلاف الشعوب، والديانات، والمكانة وغير ذلك، فهو يخاطب كل واحد بما يناسبه، وينفعه، وبما أن الخطاب هدفه التأثير والإقناع، فإن النبي صلى الله عليه وسلم راعى ذلك من أجل تبليغ الرسالة، وذلك بالتأثير على نفوس المتلقين.

ومراعاة المخاطبين تكون لاعتبارات ومن نواح كثيرة منها:

3 . 1 مراعاة ديانة المخاطب:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يراعي ديانة مخاطبيه، فهو كان يخاطب الكفار والمشركين بالكلام الحسن واللين، من أجل إقناعهم بالإسلام، وبأن الإسلام دين الحق، ودين اليسر، لا دين العسر، ولكن عند الحاجة فإن النبي كان يخاطبهم بشدة، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت/46].

ومن الأحاديث التي وردت في أدب التخاطب مع الكفار، واليهود وغيرهم نذكر:

1 . عن الزهري قال: أخبرني عروة، "أن عائشة رضي الله عنها قالت: (دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليكم، ففهمتها فقلت: عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مهلا يا عائشة فإن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقلت: يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد قلت: عليكم " 1.

2 . عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا سلم عليكم اليهود، فأنما يقول أحدهم: السام عليكم، فقل: وعليك " 2.

3 . عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم " 3.

4 . عن بريدة بن الحصيب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقولوا للمنافق سيّد، فإنه إن يك سيّدكم، فقد أسخطتم ربكم عزوجل " 4.

1 - البخاري، كتاب الإستئذان، باب كيف الرد على أهل الذمة بالسلام، رقم الحديث: 6256.

2 - البخاري، كتاب الاستئذان باب كيف الرد على أهل الذمة بالسلام، رقم الحديث: 6257.

3 - البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إذا عرض الذمي أو غيره بسبب النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يصرح، نحو قوله: السام عليكم، رقم الحديث: 6926.

4 - البخاري، الأدب المفرد، تح: علي مزيد، وعلي رضوان، مكتبة الخانجي، مصر، ط 1، 2002، رقم الحديث: 760.

5. عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول صلى الله عليه وسلم قال: "لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه"¹.

وفيما تقدم من الأحاديث نستخلص بأنّ: الأصل في مخاطبة الكفار حسن الكلام وألطفه إلا عند الحاجة، كما أنّ النبي صلى الله عليه وسلم بين كيفية الرد على الكفار، أو أهل الكتاب إذا سلموا، وهو قول وعليكم، لأنّ اليهود لا يقولون السلام عليكم، وإنّما يقولون السام عليكم، فهم يعنون بها الموت لك، لذلك يجب أن يرد عليهم بقول: وعليكم، وهذا ما نلمسه في الحديث رقم: 6252 من صحيح البخاري، عندما جاء اليهود فقالوا: السام عليكم يا محمد، والرسول صلى الله عليه وسلم يعرف قولهم وقصدهم، فقال عليه الصلاة والسلام: وعليكم.

وكان هناك اختلاف في قول وعليكم، قال ابن القيم في كتابه أحكام أهل الذمة: " فلو تحقق السامع أن الذميّ قال له: (سلام عليكم) لا شك فيه، فهل له أن يقول: (وعليك السلام)، أو يقتصر في قوله: (وعليك)؟ فالذي تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة أن يقال له: وعليك السلام، فإنّ هذا من باب العدل، والله يأمر بالعدل والإحسان، وقد قال تعالى: (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) فندب إلى الفضل، وأوجب العدل، ولا ينافي هذا شيئاً من أحاديث الباب بوجه ما، فإنّه صلى الله عليه وسلم، إنّما أمر بالإقتصار على القول الراد (وعليكم) بناء على السبب المذكور الذي كانوا يعتمدونه في تحيتهم، وأشار إليه في حديث عائشة رضي الله عنها فقال: (ألا ترينني قلت: وعليكم، لمّا قالوا: السام عليكم)؟، ثم قال: (إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم)، والاعتبار وإن كان لعموم اللفظ فإنّما يعتبر عمومه في نظير المذكور، لا فيما يخالفه، قال تعالى: (وإذا جاؤك حيّوك بما لم يحيك به الله، ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول)، فإذا

¹ - الإمام مسلم، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم، رقم الحديث: 5661.

زال هذا السبب وقال الكتابي: سلام عليكم ورحمة الله، فالعدل في التحيّة يقتضي أن يرد عليه نظير سلامه، و بالله التوفيق "1.

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قول سيّد للكافر، والمنافق، وغيرها من الألفاظ التقديرية مثل مولاي وغير ذلك، "وأما أن يخاطب بسيدنا، ومولانا و نحو ذلك، فحرام قطعاً، وفي الحديث المرفوع (لا تقولوا للمنافق سيدنا فإنّ يكن سيديكم فقد أغضبتم ربكم)"2.

وبين النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أن الأصل في مخاطبة الكفار أنّهم لا يبدعون بالسلام، وقد اختلف أهل العلم في ذلك، وذلك بسبب اختلافهم في دلالة الحديث، هل وارد في قضية خاصة؟ أو حكم عام، "والظاهر أن هذا الحكم عام، وقد اختلف السلف والخلف في ذلك فقال أكثرهم: لا يبدؤون بالسلام وذهب آخرون إلى جواز ابتدائهم، كما يردّ عليهم، روي ذلك عن ابن عباس، وأبي أمامة وابن محيريز، وهو وجه في مذهب الشافعي رحمه الله لكن صاحب هذا الوجه قال: يقال له: السلام عليكم فقط بدون ذكر الرحمة، ولفظ الإفراد، وقالت طائفة: يجوز الابتداء لمصلحة راجحة من حاجة أن تكون له إليه، أو خوف من أذاه أو لقربة بينهما، أو لسبب يقتضي ذلك، يروي ذلك عن إبراهيم النخعي وعقمة، وقال الأوزاعي: إن سلمت فقد سلم الصالحون وإن تركت فقد ترك الصالحون "3.

كما أنّه من أدب الخطاب أن يراعي في مخاطبة الكفار المصالح والمفاسد " ومدار هذا الباب وغيره مما تقدم على المصلحة الراجحة، فان كان في كنيته، وتمكينه من اللباس وترك الغيار والسلام عليه أيضاً، ونحو ذلك تأليف له، ورجاء إسلامه وإسلام غيره، كان فعله أولى كما يعطيه من مال الله لتألفه على الإسلام، فتألفه بذلك أولى، وقد ذكر وكيع عن ابن عباس أنه كتب إلى رجل من أهل الكتاب (سلام عليكم)، ومن تأمل سيرة النبي صلى الله

1 . ابن القيم، أحكام أهل الذمة، تح: صبحي صالح، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط3، 1983، ج1، ص 67.

2 المرجع نفسه، ج1، ص 248.

3 ابن القيم، زاد المعاد في هدى خير العباد، ج2، ص 425.

عليه وسلم، وأصحابه في تأليفهم الناس على الإسلام بكل طريق تبيّن له حقيقة الأمر، وعلم أن كثيرا من هذه الأحكام التي ذكرناها من الغيار وغيره، تختلف باختلاف الزمان والمكان، و العجز والقدرة، والمصلحة والمقسمة، ولهذا لم يغيرهم النبي صلى الله عليه وسلم، ولا أبو بكر رضي الله عنه ... والنبي صلى الله عليه وسلم قال لأسقف نجران: أسلم يا أب الحارث، تأليفا له واستدعاء لإسلامه، لا تعظيم له وتوقيرا" ¹.

3. 2. مراعاة مكانة المخاطب:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يراعي منزلة ومكانة مخاطبيه، وهذا كله من أدبه وحسن خلقه صلى الله عليه وسلم، ويظهر هذا من خلال كتاباته المتعددة، ومنها رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى ملوك الدول المجاورة أمثال هرقل عظيم الروم، والنجاشي ملك الحبشة، وخطابه إلى جيفر وعبد ابني الجلندي بن المستكبر ملكي عمان.

وتعد رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك، ذات أهمية كبيرة في التاريخ العربي الإسلامي، لأنها تمثل مرحلة من مراحل الدعوة، وأسلوب من أساليب التعريف بالإسلام، وبدء الرسول صلى الله عليه وسلم، إرسال رسائله إلى الملوك بعد صلح الحديبية في سنة 6 هـ وحتى وفاته في سنة 11 هـ وكانت رسائله خارج الجزيرة العربية، (بلاد الحبشة، والفرس، والروم، ومصر، وعمان)، واختار النبي صلى الله عليه وسلم لهذه المهمة صفوة من صحابته: (عمرو بن أمية الضمري، دحية الكلبي، وغيرهم) وكانت دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هؤلاء الملوك والأمراء تحقيقا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ/28]. وقوله أيضا: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف/158].

¹ ابن القيم، أحكام أهل الذمة، ج1، ص 248.

واشتملت هذه الرسائل على الكثير من الآداب، والقول الطيب، ومن خطابه صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء نذكر:

1- رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك العجم:

إن النبي صلى الله عليه وسلم قد وجّه خطابه أولاً إلى ملوك العجم، وهم هرقل عظيم الروم، المقوقس ملك مصر، كسرى ملك الفرس، النجاشي ملك الحبشة، وذلك بعد فتح خيبر، فالتبى صلى الله عليه وسلم وجّه عناية كبيرة لافتتاحها وقلع جذور الشر، والكفر منها، وكسر شوكة اليهود الذين كانوا يكيّدون المكائد للإسلام، والمسلمين، حيث كانوا يحرضون القبائل العربية المشركة على مهاجمة المسلمين.

ومن غير الممكن أن يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم أولئك الأباطرة والملوك مع وجود اليهود، فأنهم كانوا سيحولون بين النبي وبينهم في المخاطبة، وربما اعترضوا الرسل حاملي الرسائل، فخيبر أمس هي إسرائيل اليوم، فكما تفعل إسرائيل مع فلسطين والعرب في منعهم من التحرك لتحقيق مصالحهم، ورقّيهم، كان كذلك حال المسلمين لو بقيت خيبر بيهودها.

ومن بين الرسائل التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك العجم اخترنا:

رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم:

نص الرسالة:

"بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا

نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا
اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿ آل عمران/64﴾¹.

من خلال هذه الرسالة نستخلص بأنّ النبي صلى الله عليه استخدم عبارة رسول الله، وليس نبي الله أو الاكتفاء بذكر اسمه محمد بن عبد الله، وذلك من أجل أن يفهم هرقل ومن سمعه أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث من أجل التبليغ للناس كافة، فهو لم يكن نبيا لقومه فقط، كما هو دور الكثير من الأنبياء الآخرين من قبله حيث كانوا يُبعثون لأقوامهم فقط.

وقد ختم النبي صلى الله عليه وسلم رسالته بآية قرآنية، وذلك لأن هرقل كان على دين النصرانية، لأن عقلاء النصارى يستطيعون أن يعرفوا كلام البشر من كلام الله سبحانه وتعالى، بخبرتهم ومعرفة الإنجيل، وبالتالي فهذه الآية الكريمة تعطي قوة للرسالة في التأثير النفسي على هرقل، ومن معه، لما فيها من تأييد أن محمد صلى الله عليه سلم رسول من الله سبحانه وتعالى.

كما استخدم النبي صلى الله عليه وسلم عبارة هرقل عظيم الروم، وذلك مراعاة لمنزلته بين قومه.

وعلى العموم فإن الرسالة فيها الوضوح في طرح أكثر من قضية بشكل مباشر وصريح دون غموض، مثل: (أسلم تسلم)، ولم يستعمل النبي الألفاظ الشديدة والعنيفة، وإنما تميزت بالكثير من الجمال، واللطف والرقّة، وهذا من آداب النبي صلى الله عليه وسلم في خطابه، والتي حث أمته على التزامها.

¹ - البخاري، كتاب بدئ الوحي، رقم الحديث: 7.

2- خطابه صلى الله عليه وسلم إلى ملوك العرب وأمرائهم:

قد وجه النبي صلى الله عليه وسلم خطابه إلى ملوك العرب بعد فتح مكة، وذلك من أجل نشر الإسلام خارج حدود الجزيرة العربية، وبالتالي تتوسع رقعة العالم الإسلامي، وبينير الإسلام كل أقطار العالم العربي، ومن بين الملوك الذين بعث لهم النبي خطابه هم:

أ. جيفر وعبد ابني الجلندي ملكا عمان.

ب. الحارث بن عبد كلال الحميري حاكم اليمن.

ج. المنذر بن ساوى حاكم البحرين.

و من هذه الخطابات ارتأينا أن نختار خطابه صلى الله عليه وسلم إلى ملكي عمان.

نص الخطاب:

"بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جيفر، وعبد ابني الجلندي، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوكم بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [يس/70]، وإتكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقررا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تطأ ساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما"¹.

فقد ابتدأ النبي صلى الله عليه وسلم خطابه بعبارة بسم الله الرحمن الرحيم، وهو الذي نلاحظه في كل كتاباته وخطاباته، وهذا تعظيم لله سبحانه وتعالى، ودليل على أدبه صلى الله عليه وسلم مع ربه، ثم ذكر اسمه محمد، وذكر اسم أبيه عبد الله دون أن يذكر صفة النبوة والرسالة، في حين أنه خاطب الملوك الآخرين (العجم والعرب) بذكر اسمه مقرونا بالرسالة،

¹ . ابن القيم ، زاد المعاد ، ج3 ، ص 605

بأنه رسول الله، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم، استخدم عبارات الترغيب في اعتناق الإسلام، وذلك عندما قال: وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، كما استخدم عبارة الوعيد والإنذار لهما إن أبيا قبول الإسلام، وذلك بزوال الملك عنهما بقوله: وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وتهديهما بالحرب عندما قال: وخيلي تطأ ساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما، في المقابل استخدم عبارات بعيدة عن الشدة عندما قال: (السلام على من اتبع الهدى، أسلما تسلما).

فالنبي قد راعى منزلة مخاطبيه، وخاطبهم حسب مكانتهم في أقوامهم وذلك من أبرز سمات نبوته، وأدبه ووقاره صلى الله عليه وسلم.

3. 3 مراعات الفروق الفردية بين المخاطبين:

أ. مراعاة سن المخاطب: فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب كل واحد حسب سنه، لذلك من أدب الخطاب أن يعرف المخاطب أثناء الحديث مع الآخرين أخبار الناس، فلا يبادر وهو صغير بالتكلم بين يدي الكبير، بل يجب أن يكون مؤدبا متخلقا بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالكبير حق، فعلى المتكلم أن يوقره ويحترمه، وهو كذلك بالنسبة للصغير عند مخاطبته، فيجب أن يخاطب بالكلمات المناسبة لإدخال الفرح إلى قلوبهم، ولذا تجد في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم من المزاح، والمداعبة والكلمات المناسبة، محاولة منه إدخال الفرح في قلوبهم، بما يناسب عقولهم وسنهم.

ومن الأحاديث الواردة في هذا الشأن:

1 . عن أنس بن مالك رضي الله عنه " أنه مر على صبيان فسلم عليهم وقال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعلُه "1.

1 . البخاري، كتاب الإستئذان، باب التسليم على الصبيان، رقم 6247.

2. عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: " إن كان النبي صلى الله عليه وسلم ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: يا أبا عمير، ما فعل النُّعير؟"¹.

3. عن أم خالد بن خالد بن سعيد قالت: " أتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي وعلي قميص أصفر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة سنة. قال عبد الله وهي بالحبشية: حسنة. قالت: فذهبت ألعب بخاتم النبوة، فزيرني أبي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعها. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبلّي واخلقي، ثم أبلّي واخلقي، قال عبد الله: فبقيت حتى ذكر ... يعني من بقائها "².

4. عن سهل ابن سعد رضي الله عنه: " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتي بشراب فشرّب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء ؟ فقال الغلام، والله يا رسول الله، لا أوثر بنصيبي منك أحدا، قال: فتلّه رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده "³.

ب. مخاطبة الإنسان على قدر علمه وعقله:

يجب على المخاطب أن يخاطب الناس على قدر فهمهم وعلى قدر عقولهم، أما إذا خاطبهم بطريقة واحدة، أي يخاطب عالمهم وجاهلهم بأسلوب واحد، ويحرص على ألا ينزل خطابه عن درجة معينة، فهو عندئذ لا يوفق في خطابه، قال علي رضي الله عنه: "حدثوا الناس بما يعرفون، أحبون أن يكذب الله ورسوله؟"⁴.

ومن الأحاديث التي وردت أيضا في هذا الشأن:

¹ . البخاري ، كتاب الأدب، باب الانتبساط إلى الناس، رقم الحديث: 6129

² . البخاري ، كتاب الأدب ، باب من ترك صبية غيره حتى تلعب به أو قبلها أو مازحها رقم الحديث: 5993.

³ . البخاري، كتاب الأشربة، باب هل يستأذن الرجل من عن يمينه في الشرب ليعطي الأكبر، رقم الحديث: 5620.

⁴ . البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم الحديث: 127.

عن أنس بن مالك رضي الله، "أن النبي صلى الله عليه وسلم - ومعاذ رديفه على الرَّحْل - قال: يا معاذ بن جبل. قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: يا معاذ. لبيك يا رسول الله وسعديك (ثلاثاً). ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلاّ حرّمه الله على النار. قال: يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: إذا يتكلموا. وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً"¹، فقد خاطب النبي صلى الله عليه وسلم، معاذ بن جبل بما يناسب علمه، و لم يخاطب بهذا الحديث غيره، بل أمر معاذ ألا يخبر به أحداً حتى لا يحمل الحديث على غير المراد به، لقلّة عمله، لكن معاذاً أخبر به عند موته خشية الوقوع في الإثم.

ج. مراعاة جنس المخاطب:

على المخاطب أن يراعي جنس المخاطب إن كان ذكراً، أو أنثى، فالمرأة تختلف عن الرجل، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ [آل عمران/36]. وقد عني الإسلام بتشريع ما يصلح لكل واحد منهم وفق طبيعته، ومن ذلك آداب مخاطبة النساء، فالإسلام لما جاء أمر بتكريم المرأة وجعلها جزء من المجتمع، عكس ما كانت عليه المرأة قبل مجيء دين الحق، وكان تعامل النبي صلى الله عليه وسلم، تعامل لين ورحمة ومحبة. وهذا ما سنعرفه ويتبين لنا من خلال الأحاديث الواردة في هذا الشأن ومنها: أحاديث مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم لأزواجه وبناته.

1 . عن عائشة رضي الله عنها قالت: " اجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة تمشي كأنّ مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: مرحبا يا بنتي فأجلسها عن يمينه. أو عن شماله ثم إنه أسر إليها حديث فبكت

¹ . البخاري ، كتاب العلم ، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم الحديث: 128.

فاطمة، ثم إنه سارها فضحكت أيضا، فقلت: ما رأيت كالיום فرحا أقرب من حزن. فقلت لها حين بكت: أخصك رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديثه دوننا ثم تبكين؟ وسألتها عما قال فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا قبض، سألتها فقالت: إنه كان حدثني أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل عام مرة، وإنه عارضه به في العام مرتين، ولا أراني إلا قد حضر أجلي، وإنك أول أهلي لحوقا بي، ونعم السلف أنا لك، فبكيت لذلك ثم إنه سارني فقال: ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة فضحكت لذلك" ¹.

2. عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كنت لك كأبي زرع لأم زرع" ².

أما النساء الأجنبية فقد حددت الشريعة الإسلامية، الأداب والقواعد الشرعية التي ينبغي مراعاتها عند مخاطبة النساء، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب/32]. وقوله أيضا: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب/53].

ومن الأحاديث الواردة في هذا الشأن:

1. حديث أم هانئ بنت أبي طالب قالت: "ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تستره، قالت: فسلمت عليه، فقال: من هذه؟ فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: مرحبا بأم هانئ، فلما فرغ من غسله، قام فصلى ثماني

¹ البخاري، كتاب الإستئذان، باب من ناجى بين يدي الناس ومن لم يخبر بسر صاحبه فاذا مات أخير به، رقم الحديث:

6285.

² البخاري، كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل، رقم الحديث: 5189.

ركعات ملتحقاً في ثوب واحد فلما انصرف قلت: يا رسول الله، زعم ابن أمي أنه قاتل رجلاً قد أجزته، فلان بن هبيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد أجزت يا أم هانئ وذاك ضحى¹.

والأحاديث في هذا الأصل كثيرة، ليس بوسعنا التوسع في ذكرها.

فمن خلال الأحاديث المذكورة نرى بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان جميل العشرة، دائم البشر، يمازح أهله، و يتلطف بهم، و يضاحك نساءه، ويشاورهن، كما نرى بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسلم على النساء ويسلمن عليه، ويحادثهن فيما يحتجنه من علم أو حل مشكلة وغير ذلك، وهذا يدل على جواز مخاطبة الرجل للنساء وفق الضوابط الشرعية.

4.3. مراعاة ظروف ومناسبات الخطاب:

إن مراعاة الظروف والمناسبات من أدب وحسن التخاطب، فلكل مقام مقال، كما قال الناس بل وكما سلك رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المسالك، فوقت الفرح ليس كوقت الحزن، وما يحسن أن يقال في مجلس العلم والذكر لا يحسن في مجلس التبسط والضحك.

ومراعاة الظروف والمناسبات عامل كبير في التأثير والاستجابة للمخاطب، فيجب على المخاطب أن يختار الكلمات التي تناسب تلك الظروف والمناسبات.

فقد كانت خطابات النبي صلى الله عليه وسلم، تختلف باختلاف المناسبات، فخطاب حجة الوداع يختلف عن خطاب خطاب الغزوات وغير ذلك.

ومن الأحاديث الواردة في هذا الأصل والتي تدل على مراعاة النبي صلى الله عليه وسلم للظروف والمناسبات المتعلقة بالخطاب نذكر: مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم

¹ - البخاري، كتاب الجزية، باب أمان النساء وجوارهن، رقم الحديث: 3171.

للناس في حجة الوداع، وهذه الخطبة التي ألقاها النبي صلى الله عليه وسلم سميت بخطبة حجة الوداع، لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم ودع فيها الناس، ولم يحج بعدها، وقد ألقاها صلى الله عليه وسلم يوم عرفة، حيث راعى فيها المناسبة التي ألقى فيها هذه الخطبة. فقد تضمنت هذه الخطبة قواعد هامة لصالح المجتمع، فقد استهل النبي كلامه بتحريم الدماء والأموال، وشبه هذا التحريم بحرمة يوم عرفة من شهر ذي حجة في بيت الحرام مكة المكرمة، ونظرا لما لمكة من حرمة عظيمة فلا يسفك فيها دم أحد . كما أن النبي صلى الله عليه وسلم أبطل كل شيء كان في الجاهلية، وبيّنت الخطبة أن النجاة الحقيقية تكون بكتاب الله وسنة نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم، فتهيها السعادة في الدنيا والآخرة، وفي آخر الخطبة برأ رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه بعدما يبين للناس هذه الأمور الهامة، باعتبارها دستوراً صالحاً لكل زمان ومكان حتى يوم الدين قائلاً: " اللهم اشهد، اللهم اشهد بأنّي قد بلغت " ، فالخطبة إذاً كانت مناسبة للظرف والوقت التي ألقى فيها.

وهذا جزء من نص خطبة حجة الوداع.

"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و أشهد أن محمدا عبده ورسوله، وأوصيكم عباد الله بتقوى الله، و أحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم، فإنّي لا أدري، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا، أيها الناس: إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

... أيها الناس إنّما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد...¹.

واستخدم النبي صلى الله عليه وسلم عبارة أيها الناس، فكلمة الناس التي وردت في الخطبة تشمل الناس جميعا بما فيهم: العرب والفرس، والروم وغيرهم من الشعوب، فهذه الوصايا التي ذكرها النبي لا تشمل إنسان واحد فقط، وإنما هي موجهة إلى كل الناس باختلافهم.

5.3. مراعاة الوقت والزمن:

على المخاطب أن لا يطيل في خطابه، ولا يكثر من الكلام، حتى لا يشعر المخاطب بالملل والسآمة، فمراعاة ذلك كله دليل على التوفيق للمتكلم، ومن أدب النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يمازح أصحابه، ويعظهم ويذكرهم، وكان يوجههم، ويعلمهم، بالكلام القليل خشية الملل.

وكذلك على المتكلم أن يراعي مكان خطابه، فيجب أن يكلم الناس في مكان مناسب حتى يستطيع أن يآثر على المتلقين. ومن الأحاديث التي وردت في هذا:

حدثنا عمر بن حفص حدثنا أبي حدثنا الأعمش قال: حدثني شقيق قال: " كنا ننتظر عبد الله إذا جاء يزيد بن معاوية، قلت: ألا تجلس؟ قال: لا، ولكن أدخل فأخرج إليكم صاحبكم، وإلا جئت أنا فجلست فخرج عبد الله وهو آخذ بيده، فقام علينا فقال: أما إنني أخبر بمكانكم، ولكنه يمنعني من الخروج إليكم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتخولنا بالموعة في الأيام كراهية السآمة علينا"².

1 - الجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ج2، ص31.

2 - البخاري، كتاب الدعوات، باب الموعة ساعة بعد ساعة، رقم الحديث: 6411.

وفي موضع آخر عن أبي وائل قال: " كان عبد الله يذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمان لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، قال: أما إته يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، واني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بها مخافة السامة علينا " ¹.

2 . حديث قصة عمر بن الخطاب مع عبد الرحمان بن عوف حيث: " قال عبد الرحمان فقلت يا أمير المؤمنين لا تفعل فإن الموسم يجمع رعاك الناس وغوغاءهم، فإنهم هم الذين يغلبون على قريك حين تقوم للناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير، وأن لا يعوها، وأن لا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول: ما قلت متمكن، فيعي أهل العلم مقالاتك، ويضعونها على مواضعها، فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة، قال ابن العباس، فقدمنا المدينة في عقب ذي الحجة " ².

فمراعاة الزمن، والمكان له أثر كبير في الخطابات، لما له من مساهمة في التأثير على استجابة وتفاعل المتلقين دون ملل.

6.3. مراعاة الحال النفسية للمخاطب:

فالأصل في الخطاب أن يراعي المخاطب الحالة النفسية للمخاطب، وأن يكون الخطاب بالتيسير والتبشير، لا بالتعسير وغير ذلك، ولا يخرج عن هذا إلا لمصلحة، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يراعي الأحوال النفسية للمخاطبين، ويخاطب كل واحد بما يناسب حاله، ويظهر هذا من خلال الأحاديث التي وردت في السنة النبوية، فكان صلى الله عليه وسلم يراعي المخاطب في حالة حزنه، ومراعاته في حالة

¹ - البخاري كتاب العلم، باب من جعل لأهل العلم أياما معلومة، رقم الحديث: 70.

² - البخاري، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، رقم الحديث: 6830.

الغضب، والشدة واللين، فالغضب يفقد صاحبه السيطرة على تصرفاته، فلا يدري المرء على أفعاله، وأقواله وهذا كله من الشيطان، أما اللين والرضا فتجعل الإنسان يتقبل الخطاب بما فيه من نقد أو عتاب، أو مدح أو هجاء وغير ذلك، دون أن يفقد أعصابه لذلك فقد راعى النبي صلى الله عليه وسلم كل هذا، ومن الأحاديث التي وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم، في هذا الأصل نذكر:

1 . عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: " مر النبي صلى الله عليه وسلم بامرأة تبكي عند قبر، فقال اتقي الله واصبري، قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، ف قيل لها: إنّه النبي صلى الله عليه وسلم، فأنت النبي صلى الله عليه وسلم فلم تجد عنده بوابين فقالت: لم أعرفك، فقال: إنّما الصبر عند الصدمة الأولى " ¹، فقد راعى النبي في هذا الحديث حالة الحزن التي كانت تعيشها تلك المرأة، التي كانت تبكي على فقيدها.

2 . عن أبي هريرة رضي الله عنه: "أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم أوصني، قال: لا تغضب، فردد مرارا، قال: لا تغضب " ².

3 . عن أبي هريرة رضي الله عنه: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب " ³.

من خلال الأحاديث نستخلص بأن النبي كان يراعي أحوال مخاطبيه ، ففي الحديث الأول راعى حالة المرأة التي كانت تبكي فقيدها ، أما في الثاني فقد راعى حال الرجل الذي يعاني من الغضب والذي يسبب له المتاعب، ويخشى منه أن يوقعه في المحظورات، فالتبى صلى الله عليه وسلم تكلم مع هذا الرجل بما يعمل على تخليه عن الرذائل، وتحليه

1 - البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، رقم الحديث: 1283.

2 - البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم الحديث: 6116.

3 - البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم الحديث: 6114.

بالفضائل، فالغضب يفقد الإنسان السيطرة على نفسه وتصرفاته، وأقواله، أما في الحديث الثالث فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم بأن الشديد هو الذي يتمالك نفسه عند الغضب.

وكل هذا من أدب النبي صلى الله عليه وسلم، وحسن خلقه مع الآخرين.

4 . مراعاة أسلوب طرح أو عرض الخطاب:

على أي متكلم أن يكون له أسلوب متميز، وراقي حتى يتمكن من التأثير، والإقناع عند مخاطبته الآخرين، ومن بين ما يجب مراعاته في أسلوب عرض الخطاب:

أ- رفع الصوت وخفضه عند الحاجة:

وأولت السنة النبوية عناية كبيرة لهذا الشأن، وهذا يظهر من خلال أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ومن الأحاديث التي وردت حول هذا الموضوع:

عن عبد الله بن عمرو قال: " تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة سافرناها، فأدركنا، وقد أرهقتنا الصلاة ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته (ويل للأعقاب من النار)، مرتين أو ثلاثا "1.

2 . وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يراعون هذا في مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم ففي حديث عروة بن مسعود الثقفي الطويل، واصفا إجلال أصحاب النبي، للنبي صلى الله عليه وسلم قال: "وإذا توضأ يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحيدون إليه النظر تعظيما له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشدا فاقبلوها "2.

فرفع الصوت، وخفضه يكون حسب الضرورة والموقف، فأحيانا يضطر المخاطب لرفع صوته، وأحيانا أخرى يضطر لخفضه.

1 - البخاري، كتاب العلم، باب من رفع صوته بالعلم، رقم الحديث: 20.

2 - البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم الحديث: 2731.

ب- الأداب المتعلقة بلغة الجسد عند المتكلم:

فلغة الجسد مؤثرة في نفس المخاطب، ومن بين أساليب لغة الجسد كثرة الحركة مثل استخدام اليد عند المخاطبة، وهذه المهارة مهمة ينبغي للمتحدث أن يتقنها، وذلك لما لها من أثر بالغ في إيصال الفكرة، والقصد وتفعيله في نفس المتلقي، ومن بين الأساليب كذلك استخدام تعابير الوجه فاللفظة لا تكفي وحدها من أجل إيصال المعلومة، وإنما ملامح الوجه تلعب دورا كبيرا في هذا الخطاب، وقد وردت أحاديث تطبيقا لهذا الشأن وهذا دليل على عناية السنة النبوية بمراعاة لغة الجسد في الخطابات ومن الأحاديث نذكر:

- 1 . عن أنس ابن مالك قال: " صلى لنا النبي صلى الله عليه وسلم، ثم رقي المنبر فأشار بيده قبل قبلة المسجد ثم قال: لقد رأيت الآن، منذ صليت لكم الصلاة الجنة، والنار ممثلتين في قبلة هذا الجدار فلم أرى كاليوم في الخير، والشر ثلاثا " ¹
- 2 . عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)، ويشبك بين أصابعه" ².
- 3 . عن ابن عباس، "أن النبي صلى الله عليه وسلم في حجته فقال: ذبحت قبل أن أرمي، فأوماً بيده قال: ولا حرج، قال: حلقت قبل أن أذبح فأوماً بيده: ولا حرج" ³.
- 4 . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قال أبو قاسم صلى الله عليه وسلم في الجملة ساعة لا يوافقها عبد مسلم قائم يصلي فسأل الله خيرا إلا أعطاه، وقال بيده ووضع أناملته على بطن الوسطى والخنصر، قلنا يزهدا " ⁴.

¹ - البخاري، كتاب الأذان، باب رفع البصر إلى الإمام في الصلاة، رقم الحديث: 749.

² - البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم الحديث: 481.

³ . البخاري ، كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس، رقم الحديث: 84.

⁴ . البخاري، كتاب الطلاق، باب الإشارة في الطلاق والأمور، رقم الحديث: 5294.

وهذا دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يراعي استخدام الحركات في خطابه حتى يوضح للناس، فأحيانا الكلمة تحتاج إلى مثل هذه الإشارات لفهم معناها.

ج - تكرار الكلام عند الحاجة:

فمن أجل لفت النظر إليك عند المخاطبة، يجب على المخطَب أن يعتمد على أسلوب التكرار، ومما يتعلق بأدب الخطاب الوارد في السنة النبوية، يتجلى من خلال الأحاديث والخطابات النبوية، ومن هذا نذكر:

1 . عن أنس ابن مالك رضي الله عنه، "عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثة حتى تفهم عنه، و إذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثا "1.

2 . قال الرسول صلى الله عليه وسلم " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا؟ قالوا بلي يا رسول الله، قال: الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ، وَعَقُوقُ الْوَالِدِينَ، وَجُلُوسُ وَكَانَ مَتَكِّنًا فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، قَالَ: فَمَا زَالَ يَكْرُرُهَا حَتَّى قَلْنَا لَيْتَهُ سَكَتٌ "2.

5. ضرورة التواضع والطلاقة عند مخاطبة الناس:

ينبغي على أي مخاطب أن يكون متواضعا للناس، مقبل عليهم بوجه بشوش مبتسم، لا بوجه عابس.

كما لا يجب أن يخاطبهم وهو مصعر خده، فقد قال لقمان الحكيم لولده: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. [لقمان/18].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم متواضعا في خطابه، وهو خير قدوة نقندي بها، لأنَّ التواضع يرفع صاحبه درجات، فمن تواضع لله سبحانه وتعالى أعزه.

1 - البخاري، كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثا عنه، رقم الحديث: 95.

2 - البخاري، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، رقم الحديث: 2654.

ومن الأحاديث التي وردت في هذا الشأن نذكر:

1 . عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد و لا يبغي أحد على أحد " ¹.

2 . عن أبي هريرة رضي الله عنه، "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما نقصت صدقة من مال، و ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)" ².

فلا يصح للعبد أن يترفع في خطاباته، فالنبي صلى الله عليه وسلم، حرص على تعليم وتربية أمة على التواضع في كل شيء، فلا يصح لأمرئ أن يتكبر على الآخر، بمسكن يسكنه، أو ثوب يلبسه أو غير ذلك.

6. السكوت الطويل لشدّ انتباه المخاطب:

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: " بينا أنا رديف النبي صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه إلا أخرة الرجل، فقال: يا معاذ، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ، قلت: لبيك رسول الله وسعديك " ³

7. ضرب الأمثال وذكر القصص:

¹ - مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم الحديث: 2865.

² - مسلم، كتاب البر و الصلة والآداب ، باب إستحاب العفو ز التواضع ، رقم 2588

³ - البخاري ، كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل ، رقم 5967

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من دونه شيء؟ قالوا: لا يبقى من دونه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا"¹.

8. الاتيان بمقدمات واعتذارات أثناء التخاطب مع الناس وقت الحاجة:

المقدمات تتنوع بحسب المواقف، قال صلى الله عليه وسلم: " أتدرون أي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟"². استهل النبي صلى الله عليه وسلم خطابه بسؤال للفت نظر الصحابة رضي الله عنهم.

وما تقدّم ذكره من آداب قابل للتفصيل، ولكن هذا البحث لا يتسع لأن نفي بها، ونفصل فيها.

¹ . البخاري ، كتاب ، مواقيت الصلاة ، باب الصلوات الخمس، رقم الحديث: 528.

² . البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منن، رقم الحديث: 1741.

خاتمة

نرجو من الله تعالى أن نكون قد وفقنا في رسم صورة قريبة، وواضحة لأدب الخطاب بصفة عامة، وأدب الخطاب النبوي بصفة خاصة.

فمن خلال دراستنا هذه حول أدب الخطاب النبوي، توصلنا إلى جملة من النتائج نوجزها فيما يلي :

- إهتمام عدد كبير من الباحثين، والدارسين بموضوع أدب الخطاب كونه مصطلحا شائعا في حقول المعرفة.

- يعد الخطاب وسيلة من وسائل الاتصال التي يعتمد عليها الإنسان للتعبير عن حاجياته اليومية، والتواصل مع أبناء جنسه، عن طريق الكلام، ويكون قصد المتكلم توصيل رسالة معينة بغية الإقناع، والتأثير في المتلقي.

- باعتبار أن الخطاب نظاما فكريا، فهو يقوم بين مرسل ومتلق للرسالة ضمن عملية التواصل، وعناصره تشكل بنية متماسكة الأجزاء.

- عناية السنة النبوية بإبراز القيم الخلقية أثناء التخاطب.

- الغفلة عن أدب التخاطب تؤدي إلى سوء الخلق، ونقص المحبة والمودة، وتفشي الكراهية، والبغضاء بين أفراد المجتمع الإسلامي.

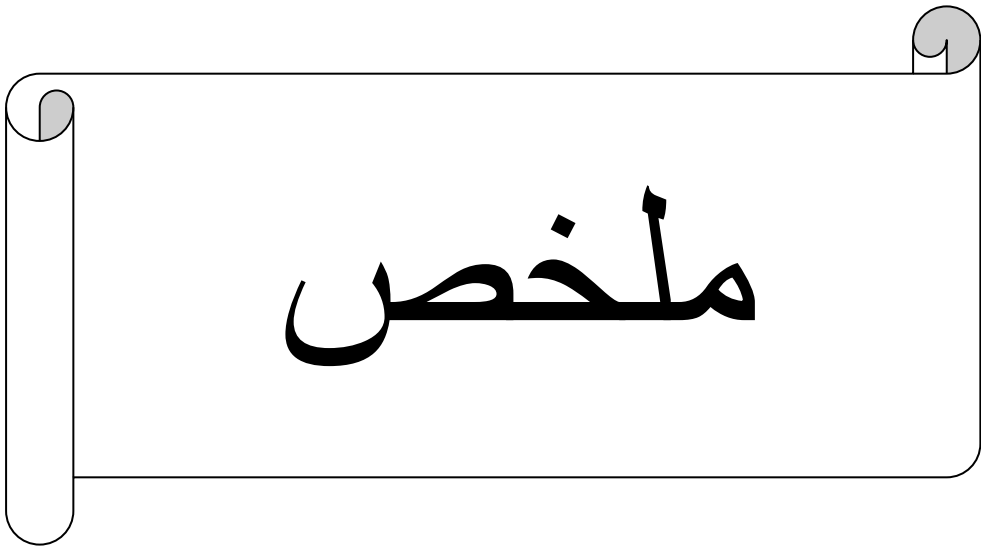
- يجب على كل إنسان وخاصة المسلم أن ينتبه لخطابه مع الآخرين، وأن يزن كلامه، وعباراته قبل التلفظ بها.

- من أبرز مظاهر عظمة النبي صلى الله عليه وسلم، ونبوته، وفصاحته، أن الله سبحانه وتعالى خصّه بجملة من خصائص والتي جعلت خطابه يختلف، ويتميز عن خطابات الآخرين.

- يعد التخاطب مع الناس فن من فنون، يحصل عن طريق العلم والعقل ، ويقدر النقص فيهما يكون النقص في أدب التخاطب.

- تعد السنة النبوية من أهم مصادر تعلم أدب التخاطب، لما فيها من قواعد وآداب التخاطب، وبالتالي فهي ينبوع الأدب بعد القرآن الكريم.

هذه أهم النتائج التي توصلنا إليها بصفة عامة.



ملخص:

باعتبار أن التخاطب وسيلة ضرورية يعتمد عليها الإنسان للتعبير عن حاجياته ومقاصده، وكذلك للتواصل مع أبناء جنسه، وحتى يستطيع الإنسان تعلم أدب الخطاب وفنونه، وحتى يكون خطابه خطابا راقيا، وناجحا مع غيره، عليه أن يعرف كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب الناس، فالنبي صلى الله عليه وسلم بعث معلما ومربيا للبشرية جمعاء فخطابه صلى الله عليه وسلم، خطابا راقيا، رفيقا فصيحاً، نافعا غير ضار، لأن الحديث النبوي يلي القرآن الكريم في الفصاحة والبيان.

وقد قمنا في هذا البحث بمعالجة موضوع أدب الخطاب النبوي، فطرحنا بعض الإشكاليات والتساؤلات عن بعض الأمور الخاصة بالموضوع كما هي الأدب؟ و ماهية الخطاب؟ وماذا نعني بأدب الخطاب؟ وما مفهوم الخطاب النبوي وما خصائصه؟ وقد قمنا بتقسيم بحثنا هذا إلى ثلاثة فصول تسبقها مقدمة، وتتلوها خاتمة، فتناولنا في الفصل الأول: أدب الخطاب المفهوم والبنية، بحيث تطرقنا فيه إلى مفهوم الأدب في اللغة والاصطلاح، ومفهوم الخطاب في التراث الغربي، والعربي ثم استنتجنا مفهوما بسيطا لأدب الخطاب، كما تحدثنا عن بنية الخطاب.

أما في الفصل الثاني: فتطرقنا فيه إلى مفهوم الخطاب، والحديث النبوي وتحدثنا عن خصائصه.

أما الفصل الثالث وهو الفصل التطبيقي فتطرقنا فيه إلى: أدب الخطاب وتجلياته في الحديث النبوي الشريف، حيث تناولنا مجموعة من الآداب التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يراعيها في خطابه، ويعلمها لأمته، معتمدين على أحاديث نبوية تتعلق بهذا الجانب. وفي الختام قدمنا حوصلة للنتائج المتوصل إليها: تلخصت فيما يلي:

- اهتمام عدد كبير من الباحثين، والدارسين بموضوع الخطاب كونه مصطلحا شائعا في كثير من حقول المعرفة.

- بأنّ الخطاب يعد وسيلة من وسائل الاتصال يعتمد عليها الإنسان للتعبير عن حاجياته اليومية عن طريق الكلام، ويكون قصد المتكلم توصيل رسالة معينة بغية الإقناع، والتأثير في المتلقي.

. عناية السنة النبوية بإبراز القيم الخلقية عند التخاطب.

Abstract :

As the communication is a necessary means depends on the human to express his needs and purposes, as well as to communicate with the people of his sex, so that a person can learn the literature and discourse of the arts, and even speech is a speech, and successful with others to know how the Prophet peace be upon him address people, Peace be upon him sent a teacher and educator of all manakin and his speech, peace be upon him, a high-class speech, clear, useful, harmless, because the Prophet's Hadith follows the Koran in the eloquence and statement.

In this research we have dealt with the subject of the literature of the Prophet's discourse, and we have posed some problems and questions about some of the matters of the subject as the essence of literature? What is the discourse? What do we mean politely? What is the concept of the Prophet's speech and its characteristics? We discussed the concept of literature in language and terminology, the concept of discourse in Western and Arab heritage, and then we concluded a simple concept of discourse literature, as we talked about. On the structure of the discourse.

In the second chapter: we touched on the concept of speech, the Prophet's Hadith and talked about its characteristics.

As for the third chapter, which is the applied chapter, we discussed the literature of the speech and its manifestations in the Prophet's Hadith. We dealt with a collection of literature that the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) took into account in his speeches and taught to his Ummah, relying on prophetic traditions related to this aspect.

In conclusion, we presented a compendium of the conclusions reached:

- The interest of a large number of researchers, scholars and subject matter discourse as a term common in many fields of knowledge.
- that speech is a means of communication by the human to express his daily needs through speech, and the intention of the speaker to deliver a certain message in order to persuade, and influence the recipient.

Care of the Prophetic Sunnah by highlighting the moral values when speaking.



قائمة المصادر

والمراجع

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم: برواية حفص عن عاصم.
2. آل الشيخ صالح بن عبد العزيز، شرح الأربعين النووية للإمام النووي يحيى بن شرف، تح: عادل بن محمد مرسي رفاعي، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 2010.
3. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: محمود محمد الطناحي، المكتبة الإسلامية، د ط، د ت، ص 269 ج 5.
4. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: محمد الطاهر أحمد الزاوي، دار إحياء التراث العربي، لبنان، د ط، د ت، ج 2.
5. ابن القيم، أحكام أهل الذمة، تح: صبحي صالح، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط3، 1983، ج 1.
6. ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدى خير العباد، تح: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط4، 1986، ج 2.
7. ابن القيم الكلام على مسألة السماع تح: محمد عزيز شمس، دار علم الفوائد، د ت، د ط.
8. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط 1، 1997، ج 7.
9. ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 1، د ت، مج 1، مادة -أدب.
10. أبو علي محمد، مدخل إلى مفهوم الأدب الجماهيري، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، ليبيا، ط 1، 1988.
11. إسماعيل عز الدين، الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط 9، 2013.

12. الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا وبيروت، لبنان، ط1، 2002.
13. الإمام مسلم، كتاب المسلم، باب النهي عن إبتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم.
14. إميل يعقوب وآخرون، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، دار العلم الملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1987.
15. بدوي أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، نهضة مصر، القاهرة، مصر، د ط، 2005.
16. بغورة زواوي، الفلسفة واللغة نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005.
17. بن ظافر الشهري عبد الهادي، استراتجية الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004.
18. البوشيخي الشاهد، القرآن الكريم روح الأمة، منشورات المحجبة، ط4، 2010.
10. البوطي محمد سعيد، في الحديث النبوي الشريف والبلاغة النبوية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2011.
19. التهنائي محمد علي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ت: علي دحروج، ترجمة د: جورج زينات، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ج1.
20. الجابري محمد عابدي، الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط2، دت.
21. الجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ت: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998، ج2.
22. الجودي لطفي فكري محمد، جمالية الخطاب في النص القرآني، مؤسسة المختار، ط1، 2014.

23. حامد هلال عبد الغفار، الإعجاز اللغوي في القرآن والسنة، الصحوت للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2011، ج 1.
24. الخطابي محمد، غريب الحديث، تح: عبد الكريم إبراهيم العرابوي، جامعة أم القرى، مكة تالمكرمة، المملكة العربية السعودية، ط2، 2001، ج1.
25. الخليلي أحمد بن أحمد، جواهر التفسير، مكتبة الاستقامة، مطابع دار جديدة عمان للصحافة، عمان، الاردن، ط2، 1986.
26. الدراز عبد الله، النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، ط6، 1984.
27. الرافي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط9، 1973.
28. الرضي الشريف، المجازات النبوية، ت: مروان العطية ومحمد رضوان الدالية، د ط، 1987.
29. الزبيدي محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، ت علي هلال، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ط2، 1987، مادة أدب، ج2.
30. الزركشي، بدر الدين، البحر المحيط في أصول الفقه، دار الصفوة، الغردقة، مصر، ط 2، 1992، ج1.
31. الزمخشري، أساس البلاغة، ت عيون السود محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1998، ج 1.
32. السبكي، علي بن عبد الكافي، الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي، ت: شعبان محمد إسماعيل، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر، ط 1، 1981، ج1.
33. سعود إيداح عبد الرحمان، أدب الخطاب في القرآن الكريم، دروب للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، د ط، 2016.
34. سيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط 10، 1981، ج4، 2234.

35. شرشار عبد القادر، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، منشورات إتحاد الكتاب العربي، دمشق، سوريا، ط1، 2006.
36. الصباغ محمد، الحديث النبوي مصطلحه بلاغته، كتبه، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط04، 1981.
37. عبد الله، إبراهيم، الثقافة العربية الحديثة والمرجعيات المستعارة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان والدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999.
38. العثيمين محمد بن صالح، مصطلح الحديث، مكتبة العلم، القاهرة، مصر، ط1، 1994.
39. علوش سعيد، المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتب اللبناني، بيروت، لبنان والدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985.
40. العيني بدر الدين، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ج1.
41. فضل صلاح، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1998.
42. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 2005.
43. الكفوي أبو البقاء، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، مؤسسة الرسالة (ناشرون)، بيروت، لبنان، ط2، 1998.
44. لاشين عبد الفتاح، من بلاغة الحديث، شركة مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع، ط1، 1982.
45. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2004.
46. مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، جمهورية مصر العربية، ط1، 1980.

47. المتوكل أحمد، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، دار الأمان، الرباط، المغرب، د ت، د ط.
48. مفتاح محمد، تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1992.
49. ميلز سارة، الخطاب، ت عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 2016.
50. يقطين سعيد، تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1997.
51. يونس علي محمد محمد، وصف اللغة العربية دلاليا، جامعة الفاتح، ليبيا، 1993، د ط.

- الرسائل الجامعية:

1. بالة نواري، أدبية الخطاب النثري عند القاضي عياض، ش ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2007، 2008.
2. بولحية محمد، الأسلوب البلاغي في القرآن الكريم، ش ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2010.
3. فروم هشام، تجليات الحجاج في الخطاب النبوي دراسة في وسائل الإقناع، الأربعون النووية أنموذجا، ش ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2009.
4. قاسم بن موسى بلعديس وتاورثة العيد، بنية الخطاب الروائي عند محمد عبد الحليم عبد الله، ش مقدمة لنيل درجة ماجستير في الأدب العربي الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، كلية الآداب واللغات، 2006/2005.
5. قسيمة دليلة، استراتيجيات الخطاب في الحديث النبوي، ش ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، كلية الآداب واللغات، 2011، 2012.

6. محمود إبراهيم العتوم مهى، تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث: دراسة مقارنة في النظرية والمنهج، رسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه، الجامعة الأردنية، قسم اللغة العربية وآدابها، 2004.

المجلات:

1. حفان مليكة، الخصائص الجمالية في الحديث النبوي الشريف، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، 2018. www.alihyaa.ma
2. الزرقاء مصطفى، مقارنة بين أسلوب الحديث وأسلوب القرآن، مجلة الأدب الإسلامي، العدد 7، السنة الثانية، مطابع مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1995.
3. نبهان حسون السعدون ويوسف سليمان الطحات، جماليات وصف الجنة والنار في الحديث النبوي الشريف، دراسة أسلوبية موازنة، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العدد 13، 2013، مج 7.

المقالات الإلكترونية:

1. الساكت طه محمد، في معنى الحديث لغة واصطلاحاً وما يتصل به، شبكة الألوكة، آفاق الشريعة، مقالات شرعية، علوم الحديث، 2014. www.alukha.Net
2. العربي ربيعة، الحد بين النص والخطاب، الحوار المتمدن، التربية والتعليم والبحث العلمي، 2012.



فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
أ-هـ	المقدمة
	الفصل الاول: أدب الخطاب المفهوم والبنية
7	تمهيد
8	المبحث الأول: مفهوم أدب الخطاب.
8	1. الأدب لغة واصطلاحا
11	2. مفهوم الخطاب
12	1.2. في التراث العربي
18	2.2. في التراث الغربي
25	المبحث الثاني: بنية الخطاب
	الفصل الثاني: حول الخطاب النبوي
36	تمهيد:
38	المبحث الأول: تعريف الخطاب النبوي
40	المبحث الثاني: خصائص الخطاب النبوي:
41	1- الخصائص البلاغية واللغوية في الخطاب النبوي
58	2- خصائص عامة للخطاب النبوي
	الفصل الثالث: أدب الخطاب وتجلياته في الحديث النبوي
63	تمهيد
63	1. لين الكلام وانتقاء الكلمات والجمل الحسنة، واجتناب الكلام الفظ الغليظ،

	والكلمات السيئة عند مخاطبة الناس
69	2 . بدئ الخطاب بالسلام
71	3 . مراعاة أحوال وظروف المخاطبين
71	3 . 1 مراعاة ديانة المخاطب
75	3 . 2 مراعاة مكانة المخاطب
79	3 . 3 مراعاة الفروق الفردية بين المخاطبين
83	3 . 4 مراعاة الظروف والمناسبات عند التخاطب
85	3 . 5 مراعاة الوقت والزمن
86	3 . 6 مراعاة الحال النفسية للمخاطب
88	4 . 4 . مراعاة أسلوب طرح أو عرض الخطاب
90	5 . ضرورة التواضع والطلاقة عند مخاطبة الناس
91	6 . السكوت الطويل لشد إنتباه المخاطب
91	7 . ضرب الأمثال وذكر القصص
93	خاتمة
96	ملخص
99	قائمة المصادر والمراجع
	فهرس الموضوعات

